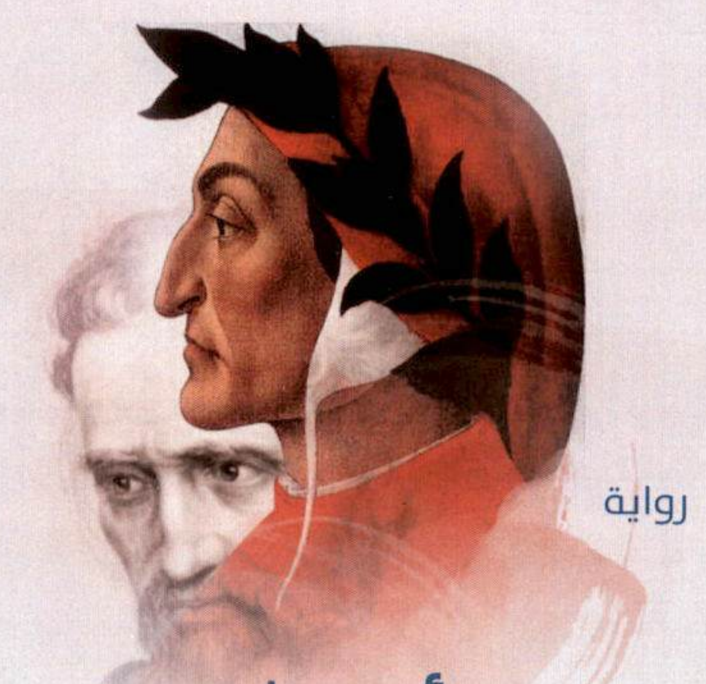


رواية

أصابع مايكل أنجلو تُلامِس ملامح دانتي

حمودة إسماعيلي



أصابع مايكل أنجلو
تُلامِس ملامح دانتي

أصابع مايكل أنجلو

تُلامِس

ملامح دانتي

حمودة إسماعيلي

الطبعة الأولى ، القاهرة 2018م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 2018 / 1543

I.S.B.N: 978-977-488-459- 0



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف: 01111947957

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

أصابع مايكل أنجلو

تُلامِس

ملامح دانتي

رواية

حمودة إسماعيلي



دار اكتب للنشر والتوزيع



كل المخلوقات الأخرى تحددت طبيعتها وتقيّدت بقوانين وضعناها لها.

أنت، على النقيض من ذلك، معوق دون خضوعك لتلك القيود، إنما من خلال إرادتك الحرة، المكفولة لك؛ عيّناك لترسمان ملامح طبيعتك..لقد جعلناك مخلوقًا، لا هو سماوي ولا هو أرضي، لا هو فانٍ ولا هو خالد، بل في حكم الصائغ الحر والمقتدر لطبيعة وجوده؛ أن تعدّل نفسك بالشكل الذي تريد.

سيكون بمستطاعك أن تنزل لحضيض، للجوانب البهيمية والمتوحشة من الحياة، وستكون قادرًا، من خلال قرارك الذاتي، أن تصعد ثانية للجوانب السامية حيث قداسة الحياة..

مكانة الإنسان بالكون تقع بين الوحوش والملائكة لكن، من خلال الصورة الإلهية الموضوعة فيه، لا حدود لما يمكن أن يبلغه.

¤ جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا



(1)

جامعة ميلانو، إيطاليا، 2014 ميلادية

- يبدو كمهرج!.

دُهشت توماسا من رؤية وجه دانتي أليغييري بهذا الشكل، عيناه واسعتان وأنفه حاد، كأنه يضع ماكياجًا، مُلتحفًا رداء أحمر، وإكليل الغار يطوّق رأسه بطريقة جعلته يبدو كزهرة عباد الشمس.

كانت توماسا ذات الشعر البرتقالي – البعض كان يناديها "نويمي" لدرجة الشبه بينها وبين المغنية الإيطالية – قد أَلِفَتْ رؤية دانتي من خلال البورتريه الجانبي لساندرو بوتيتشيلي، حتى ويكيبيديا تعتمد هذا البورتريه كصورة تعريفية للشاعر.

لا تعرف ما الذي دها ألبرتو غولينو أستاذ تاريخ الفن لاختيار هذه اللوحة ذات الخلفية الرمادية ودانتي بوجه مهرج كئيب.

تابعَ ألبرتو حديثه، وهو يقف أمام بورتريه دانتي للرسام الروسي نيكولاي كونستانتينوفيتش كالماكوف:

– عندما دخل دانتي أسوار أديس بالجحيم، واجه ثلاث نساء هن ميغيرا وإليكتو وتيزفوني.. سعى إلى إبرازهن بأشكالهن المخيفة وتصرفاتهن الهستيرية إلى بداية الندم والحسرة، كشكل من الترميز..

ندرك جميعًا أن عمل دانتي مليء بالرمزية.. غير أن رمزية النساء الثلاث تمتد إلى أبعد من الإشارة للندم أو تبكيت الضمير أو حتى الموت، وهذا ما تكشفه لنا الأعمال الفنية بتطورها التاريخي..

هناك نقطة مشتركة بعدة أعمال فنية: النساء الثلاث.

لم يأت اختيار دانتي لهذا العدد هكذا جُزافًا.. فما الذي كانت تفعله هناك تلك النساء؟ لقد كن ينادين ميدوزا!

ميدوزا هي الحقيقة، فمن ينظر لميدوزا يتحوّل لحجر.. ألم يقل الروائي باتريك زوسكيند في "قصة السيد سومير":

وجه الحقيقة بشع، مرعب، يُحدِّق قاتلًا مثل رأس ميدوزا.

في علم السلوك، الكائن الحي محكوم بخاصية "اهجم أو اهرب"..

لكن قبل اتخاذ أي القرار هناك جمود! إنه فزع النظرة نحو ما هو صادم! نحو ما هو حقيقي! والصادم صادم لأنه حقيقي...

الحقيقة مفزعة، الفزع يحوّلنا لحجر، إنها صدمة، جمود! يُصدم الإنسان عند رؤية ما هو جنسي.. القضيب والفرج، مرتكزان اعتمدهما الفن منذ بداياته، لماذا بظنكم؟

لأن الحقيقي مخفي، لحظة تَجلّيه صادمة، النظرة نحو هذا الحقيقي تُصيبنا بالفزع، فيحدث جمود! تُمسك بك لحظة التجلي كما تُمسك بك نظرة الميدوزا، تتحجر في مكانك، وتتحجر الرؤية في ذاكرتك!

تعتمد هذه العملية على ثلاثة مواقف:

موقف القَبْل، أي قبل الانكشاف. وموقف التجلي، أي التحجُّر. ثم موقف التحوّل، لا يعود الناظر كما كان. الحقيقي يُغيّر، الصدموي يُبدّل!

. فكما تبدّلت حياة آدم وحواء بعد الأكل من الشجرة وانكشاف الجنس.. تتغير حياة الصبي بعد المعرفة الجنسية! معرفة أن قدومه لهذا العالم حدث عبر عملية جنسية وليس من خلال اللقلق.. تلك المعرفة تحجّره فتغيّر رؤيته! كذلك تفعل الحقيقة!

والجنس حقيقي! تتغير حياتك بنظرتك لزوجتك تمارس الجنس مع آخر.. ستتحجر بمكانك قبل أن تستوعب ما حدث!

وحتى يكون الفن أصيلًا وحقيقيًّا وقادرًا على التغيير، يجب أن يكون صادمًا.. ميدوزيا، إشارة لميدوزا! إن النساء الثلاث يمثلن الحياة، والحياة صادمة!

عند المحلل النفسي أوتو رانك تبدأ هذه الصدمة مع الولادة.

اختفت صورة دانتي لتظهر صورة ثلاثة قديسين، بألبسة فاخرة تحيط بروؤوسهم دوائر.

قال ألبرتو:

– الآباء العظام.. يُشار إليهم كذلك بالأقمار الثلاثة بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية..

بالنسبة إلى غريغوريوس النياسي الذي يقف على اليمين بلحيته البيضاء، فإن الأقانيم الثلاثة الإلهية لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، كما لا يمكن فهمها عن بعضها البعض..

فلفظة "أقنوم" المشتقة من اللغة الآرامية لا يوجد ما يقابلها في لغاتنا اليوم، وهي تُشير إلى وحدة الكيان.. إذن حسب غريغوريوس فإن الأقانيم الثلاثة تشكّل كيانًا واحدًا!

مثلما يشكّل هو ويوحنا فم الذهب وباسيليوس، ثلاثتهم نهر الحكمة الإلهية، وكما في الصورة فهم أيقونة الكنائس الأرثوذكسية.. إن الكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات..

كما يقول كرشنا – أنا براهما وفشنو وشيفا، التي هي ثلاثة آلهة، إله واحد – وهذه الرؤية منتشرة بعدة ديانات.

بدأت الصور تتابَعُ على اللوح خلفه وهو يسايرها مُعلِّقًا، بداية بشاكتي الهندية وهن ثلاث نساء بزي ساري أحمر، وتيجان ذهبية.

ثم آرتميس الإغريقية، وكن ثلاث نساء يونانيات يحملن مشاعل. ما ظهر بعدها أثار استغراب توماسا، فالصورة كانت لنقش قديم به ثلاث نساء ينظرن في اتجاهات مختلفة يحيط بهن كلبان وثعبانان ويتربع على رؤوسهن هلال، كان ألبرتو ساعتها يقول:

– الغرانيق العلى..

وهن اللات والعزى ومناة..كن يُعبدن في منطقة الجزيرة العربية.. اللات ربَّة الخصب والولادة، والعزى ربَّة العطاء أو الحياة إجمالًا، ومناة ربَّة الموت.

ظهرت بعدها صورة لنقش يكشف عن ثلاث نساء عاريات.

"إن الفن يكشف الحقيقي كما ذكرت.. هذا العمل الذي يظهر أمامكم من مدينة بومبي

"النعم الثلاث".

جدارية يرجع تاريخها ل 60 سنة قبل الميلاد.. تناولها كذلك فنان من أبرز فناني عصر النهضة، رفاييلو سانتي، بلوحة تعود لسنة 1504 بعد الميلاد.

بدت النساء الثلاث أو النعم الثلاث كما يُسمّين باللوحة لتوماسا أوضح مقارنة بالجدارية وهن يمسكن بتفاحات في أيديهن، غير أن اللوحة التي ظهرت بعد ذلك بدت فيها الخصائص الأنثوية أكثر بروزًا، النهدان والوركان، بينما علّق عليها ألبرتو قائلًا:

– النعم الثلاث أيضًا للرسام الفلامنكي بيتروس باولوس روبنس

تعود لسنة 1639 بعد الميلاد.

بدت الصورة التالية حقيقية لتوماسا، وهن ثلاث نساء عاريات، تقوم الوسطى بينهن بسد أذنيها بكلتا يديها، بينما نسختان منها تحاولان إخبارها بشيء ما، لوحة "الفنون الثلاثة" للرسام الإسباني دينو فالس، كما ذكر الأستاذ.

قال ألبرتو بينما ظهرت خلفه لوحة لثلاث نساء يجلسن على ركبهن فوق اليابسة وحولهن جثث، بينما كن يلوّحن بأيديهن لسفينة قريبة بالبحر:

"لنعد لنساء دانتي..

فكما نرى في اللوحة التي تعود لسنة 1837، اعتمد الرسام الإنجليزي ويليام إيتي على ثلاث نساء..

كذلك هربرت جيمس درابر سنة 1909 حيث النساء الثلاث صعدن للسفينة مقتربات من أوليس المقيّد بعمود الشراع..

وأيضا أوتو غراينر الرسام الألماني حيث النساء الثلاث ينتظرن السفينة تحت شجرة يحملن الورود الحمراء..

أما لدى الرسام الفرنسي ماري فرونسوا فيرمان جيرار، فالنساء يجلسن على صخرة ويعزفن ألحانًا موسيقية لقدوم السفينة..

والرؤية نفسها ألهمت النحات الفرنسي أوغوست رودان صاحب نحت "المفكر" الشهير، لنحت النساء متعانقات فوق صخرة بعد ذلك بعشرين سنة، سنة **1888** ميلادية تقريبًا، تحت مسمّى "الحوريات"..

أما اللوحات التي رأيناها فاشتركت بمسمّى "أوليس والحوريات".

الحوريات طبعًا هن النساء اللواتي يخطفن الألباب، ويغرقن البحارة بأعماق المحيط..يُطلق عليهن "الهاربيز" بقمم الجبال..

الاختلاف بين الهاربيز والحوريات هو اختلاف رمزي، استعارة بيئية..الهاربيز أحيانًا يصوّرن بأجنحة إشارة لطيور الجبال.. والحوريات بذيل سمكة إشارة للمنطقة البحرية..الهاربيز بالنسبة للشاعر الإغريقي هيسيودوس هن آلهات أسرع من الريح، ربّات الماروت عند الهندوس اللواتي يُسقطن المطر، وكما رأينا فالآلهة كن يصورن بثلاث هيئات إشارة لقدرتهن على الخَلْق، كقدرة الأمهات.. يخلقن المطر والمحاصيل كما يخلقن الأطفال.. تتكوّر بطونهن بالتدريج كتكوّر القمر..

لقد احتفظت المرأة بدائرة الحياة في النقوش، قبل أن تنتقل للرجال.. كما نرى في رسوم القديسين بالكنائس، حيث الدائرة تحيط برأس المسيح كما برؤوس أتباعه من الشهداء..

إنها الشمس، نور الحياة..

بهذا فدانتي مثله مثل أوليس واجه الحياة، عند مواجهته للنساء الثلاث، من منطلق فنّي مجازي، والمواجهة هي سعي للفهم!

هناك مؤلّف يتطرق لهذه النطقة، وهي رحلة الباحث بمختلف الحضارات من الواقعي إلى الرمزي، كسعي لكشف أمور خاصة بالحياة.. "البطل بألف وجه" للأمريكي جوزيف كامبل".

***

(2)

سجن تيلانيوم، روما، 30 ميلادية

بسلطة القانون الروماني المبارك من جلالة الإمبراطور المعظم تيبيريوس، حُكِم على المواطن سيمون بالإعدام جوعًا بأمر من البريتور، بتهمة السخرية من القانون الروماني وإهانة الآلهة، ورحمة من البريتور الممثل لقانون الروما الحامي، ونظرًا لكبر سن الجاني وضعف حالته الصحية، سُمح لابنته بيرو بزيارة له كل يوم بزنزانته، إلى أن يحين أجله.

بعد عملية التفتيش، طلب الحارس من بيرو مرافقته، تحرّك نحو اليسار، فتبعته وهي تراقب بعينيها الحارس الآخر الذي كان يجلس داخل البهو وبدا شاردًا ينظر إلى الفراغ، نزلت بشكل ملتف الاثنتي عشرة درجة نحو الطابق السفلي، فتح الحارس بابًا خشبيًّا، وطلب منها الدخول.

كادت تفر عائدة أدراجها من هول المنظر، المكان أشبه بكهف، مظلم ومخيف، والرائحة كريهة، رأت والدها نائمًا هناك متكئًا شبه عارٍ، فقط قطعة قماش بالية تخفي عورته، والأغلال تقيد يديه بالحائط، وكأنه سيفو! عجوز مريض لا يملك حتى القدرة على الحركة! ما بالك بالهرب؟!

كان السقف عاليًا قليلًا غير أنها شعرت وكأنه يضغط على رأسها، اقتربت نحو والدها، فحرّكته بهدوء، تململ الأخير، وفتح عينيه، نظر نحوها، فتراءى له وجه ابنته متلألئًا دامعًا تحت النور الخافت الذي ينبعث من ثقب دائري بالسقف.

سيمون:

– بيرو ابنتي.. وجهك هو كل ما تبقّى لديَّ في هذه الدنيا، ولا أرغب برؤيته باكيًا..أين ابتسامتك؟

ابتسمت بيرو رغمًا عنها، لكن سرعان ما انهارت تجهش بالبكاء، انحنت أكثر نحو والدها، وأحاطته بذرعيها لتضمه بقوة، لم تعد قادرة على قول شيء، بكاؤها يقول كل شيء.

سيمون:

– يكفي بيرو.. قلبي لا يتحمل رؤيتك حزينة، وجسدي لا يقوى على تحمّل حضنٍ يائس.. يكفي فأنا ميت بكل الأحوال.

رفعت بيرو رأسها وعيناها ممتلئتان بالدمع والأسى.

بيرو (بصوت متقطع):

– كيف لا أحزن؟ وأنا أراك بهذه الحالة؟ في هذا المكان؟ أي أبي العزيز.. لو أني مت قبل أن أجد نفسي مكتوفة اليدين.. أنظر لك وأنت تتعذب منتظرًا الموت.

أجهشت ثانية بالبكاء، استجمع سيمون قواه، فحرّك يده ووضع أصابعه على شفتيها ولامس بيده الأخرى خدّها الناعم، تركت بيرو جسده العاري لتمسك يديه بشغفٍ، وتغمرهما بقبلات يتخللها النحيب.

لم يقدر سيمون على الكلام، وملأت الدموع وجهه الشاحب، كان بكاؤه صامتًا كصمت الزنزانة.

فوق، كان الحارسان يتبادلان الحديث بالقرب من مخرج السجن.

الحارس الأول:

– لو لم يكن رومانيًّا أصيلًا، لقُتل على الفور.

حارس الثاني:

– أتظن؟

– لا، الإمبراطور يستهجن الإعدام بالعنف.. زيادة على ذلك، لو علم أن المحكوم فيلسوف، لربما أمر بالصفح عنه.

الحارس الأول:

– الصفح؟ هل تحلم؟ يسخر من القانون المقدس، وينفي قدرة الآلهة، وتعتقد أن الإمبراطور سيسعد بذلك؟ لربما يمنحه هبة!

الرجل طاعن في السن، وما كان يتفوه به إنما هو من أمارات الخرف! العجزة أحيانًا يتفوّهون بأمور غريبة..

شبيهة بكلام الأطفال..

الحارس الثاني (مقاطعًا):

– إنه حكيم بشاهدة الجميع.. لم يكن يتفوّه بأحاديث أطفال.

الحارس الأول:

– لا يهم! ما رغبت بقوله هو أنه نظرًا لأصوله الرومانية، فالقانون يخوّل له تخفيفًا في الحكم..ونظرًا لعمره وحالته، فتركْه بالجوع كافٍ للقضاء عليه.. في أقل من أسبوع.

الحارس الثاني:

– أنت لا ترى المشهد كاملًا! المسألة لا تتعلق بأصله ولا بالقانون.. إنما بالخوف من أفكاره!

لقد بدأ بزعزعة عقائد الناس.. أدخل لنفوسهم الشكوك حول الحق والباطل.. حول الوهم والحقيقة..

إن القضية هنا هي قضية حفاظ على استقرار روما، وبنفس الوقت عبرة، لمن تخوّل له نفسه التفلسف حول سلطة القانون والإمبراطور.

الحارس الأول:

– ها! أنت قلتها.. يتفلسف حول سلطة الإمبراطور.

الحارس الثاني:

– حتى لو تفلسف حول سلطة الإمبراطور.. هناك فرق بين انزعاج الإمبراطور، وانزعاج الحاكمين بسلطة الإمبراطور.

الحارس الأول:

– ماذا تقصد بكلامك؟

الحارس الثاني:

– حتى لو وصل خبر العجوز للإمبراطور.. فلا أحد متأكد قطعًا بأن الإمبراطور كان سيحكم بقتل العجوز..لكن الجميع متأكد أن البريتور هو من أطلق الحكم.. أفهمت؟

روما يحكمها السيناتو.. مجلس الشيوخ تحكمها إدارة وليس شخصًا!

الحارس الأول:

– تقصد أن الإمبراطور.. مجرد مظهر!

الحارس الثاني (متنحنحًا):

– اذهب لإعلام الابنة أن الزيارة انتهت.

***

(3)

رفض الحارس طلب بيرو بإحضار بطانية لوالدها، متعللًا بالأوامر، وبأن الجو أصلًا حَرٌّ، حتى أنه رفض طلبها إحضار رضيعها ليرى جده، وينعم هذا الأخير برؤية حفيده قبل أن يُوارى الثرى.

لم تعد بيرو تقوى على زيارة والدها، يؤلمها رؤيته يضعف يومًا بعد يوما، هل ستستمر هكذا تنظر له مكتوفة اليدين حتى يتلاشى؟ هل حكمت الآلهة عليه بالعذاب أم عليها؟ أم على كليهما؟

عليه بالموت جوعًا، وعليها بذكرى تقضُّ مضجعها طوال عمرها، صورة والدها المحبوب وهو يذبل.

وماذا بيدها أن تفعله؟ وهي الحائرة بين رضيعها وأبيها، كائنان ضعيفان يحتاجان وجودها قربهما، هذا حتى يكبر ويشتد، والآخر حتى لا يغادر الدنيا كملعون لا أحد له.

فجأة، بزغت بعقلها فكرة، أهو وحي من آلهة السماء؟ هل استجابت ڤينوس الطيبة ربة العطاء لتوسلاتها؟ كيف لم يطأ بالها هذا الاقتراح من قبل؟ وهل هناك من اقتراح سواه؟

قالت محدّثة نفسها:

- أوليس الشيخ بأصله طفل؟ وكيف يكبر الطفل ويصبح رجلًا وشيخًا لولا حليب الأم؟ حتى الحيوانات لا يستوي قيامها إلا بالرضاعة من أمها. لقد كان والدها ذات يوم رضيعًا، رضع من ثدي أمه، وهو الآن في أمسِّ الحاجة لثديها، لحليبها، حتى يقوى ويعيش.

ليصبح والدها رضيعها، ما الضير في ذلك؟

مهما تكن فهي أُمٌّ تؤدي دورها في العطاء والإنقاذ، وهو رضيع مهما يشبّ ويَشخ، أصل الإنسان مصٌّ ورضاع. أليست هذه رغبة الآلهة؟ وإلا لما خطرت لها الفكرة!

سيرضع والدها منها ليعيش، ستكون أمه، كما كانت ابنته، دمها دمه، وحليبها حليبه، غذّاها وهي صغيرة، وستغذيه وهي كبيرة، سهر على راحتها وأمنها وصحتها وهي ضعيفة، وسترد له عافيته وقوته وهي قادرة.

إن جوهر العطاء هو الحب، هي تحب أباها، وستعطيه، كما أعطى هو من دمه، ووقته، وحبّه.

مَرَّ على سجن سيمون ثلاثة أيام، رأته بيرو هذه المرة مستلقيًا كأنه جثة، لولا صدره الذي يهتز ببطء لظنَّت أنه فارق الحياة، اقتربت منه، حرّكته.

لكن هذه المرة لم يعتدل ليجلس، لم يقدر سوى على فتح عينيه، دون تحديد للرؤية، كانت عيناه تنظران إلى الفراغ، ثم عاد ليغلقهما، ثم فتحهما.. كأنه يكافح النوم. أدركت بيرو أن الإرهاق أخذ منه كل مأخذ.

انحنت لتمسك رأسه بحنو، قرّبته نحو صدرها، وبيدها الأخرى سحبت تكشف عن ثديها، ثم وضعت الحلمة بين شفتيه. لم يكن سيمون قادرًا على الكلام، ولا حتى على القيام بأي حركة، لم يجُل بباله شيء، وجد نفسه يمصُّ الثدي بشكل غريزي ويسحب الحليب داخل جوفه، كأنه عاد رضيعًا، لا شيء في عالمه سوى هذا الحضن، لا يملك شيئًا غير هذا الثدي الذي يُطعمه.

بيرو الآن هي أُمّه، هي الكون بالنسبة له.

في تلك الأثناء، كان الحارسان يتبادلان الحديث كالعادة..

الحارس الأول:

- لو كانت لديك فكرة عما كان يتفوّه به ذلك العجوز لفهمت تأكيدي أن أصله هو فقط ما أنقذه من ميتة بشعة حتى يكون عبرة.

الحارس الثاني:

– لِم لا تفهم؟ كل يوم أردد على مسامعك الكلام نفسه! أتعجز عن إدراك أن روما تعيش بظروف حرجة، ولولاها لما اهتم أحد لعجوز يطلق أقاويل هنا وهناك.. لقد أَلِفت روما منذ القدم على أشباهه..زيادة على أن الإمبراطور منفتح بخصوص النقاشات الفلسفية لا يجد فيها ضيرًا، والأكثر من ذلك أن السناتو مهتم لأمور الضرائب.. لا تهمه محاكمات حول مشكلات لا تضيف لخزائن روما شيئًا.

الحارس الأول:

– باعتقادك أن القانون لا أهمية له!

الحارس الثاني:

– لم أقل إن القانون لا أهمية له! قانون روما وُضع لأجل المنازعات بين التجار، ومن أجل الأملاك، والتعاقدات بالأساس.. إهانة الإمبراطور أو الآلهة.. أمور متغاضًى عنها حتى لو وُضعت لها عقوبات مشددة.. إن جوهر الأمر حتى تفهم الوضع جيدًا، هو أن غياب الإمبراطور عن روما، والشكوك حول قيام مؤامرة، وخوف السيناتو من تدخلات وتأثير سيانوس،الذي خلف الإمبراطور الموجود منذ سنوات بجزيرة كابري، هو ما أشعل فتيلَ هذه الاتهامات.. والتشدد نحو أمور كهذه.

الحارس الأول:

– تقصد أن مثل سيمون.. يُأخذون باعتبارهم دسائس لخلق الفتنة بروما! وتغيير النظام! أعني تمهيد الطريق للانقلاب على الإمبراطور.

الحارس الثاني:

– لقد صار واضحًا أن سيانوس بدأ يتصرف باعتباره الإمبراطور.

الحارس الأول (مقاطعًا بدهشة):

– لهذا تملأ تماثيله المدينة بالقرب من تماثيل الإمبراطور تيبيريوس.. لكن المثير في القضية.. كيف ستساهم أفكار سيمون في مساعدة سيانوس؟ إنه ينفي الأُسس! بل إنه يلغي سلطة الإمبراطور! باعتباره بشرًا مُساويًا للعبيد!

الحارس الثاني:

– لا تهم أقاويل سيمون.. المهم هو دور سيمون! تصرفه غير المرغوب في ظروف كهذه.. إنه مجرد نموذج لردع الناس، وتأكيد سلطة القانون والسناتو.

الحارس الأول:

– ألا يحمي هكذا سيانوس تيبيريوس.. باعتباره مدافعًا عن مركزه ومؤكدًا لأحقيته؟

الحارس الثاني:

– أنت دائمًا تُعيدني للبداية! وأكرر الكلام نفسه.. الأمر لا يتعلق لا بسيانوس ولا بيتيبريوس! إن البريتور هو الذي قضى بالحكم.. رُفعت قضية باتهام سيمون، وهكذا تمت محاكمته..يكفي أن تلقي تهمة الخيانة على من تريد، وإن أثار موقفه شكًّا فهذا كافٍ ليجلب له الويل، دون حتى أن يصل خبر ذلك لسيانوس أو حتى لتيبيريوس البعيد.

الحارس الأول:

– لكن مَن المستفيد بتخوين عجوز لا حول له ولا قوة؟

الحارس الثاني:

– كهنة أبولو.

الحارس الأول (مبتسمًا):

– لقد قال إن عدد الآلهة أكبر من عدد سكان روما، ويعجزون عن حماية المدينة! حتى قيل إنه صاح ساخرًا ذات مرة:

"ألغوا الجيش من الحدود، ودعوا الآلهة تتصرف لن تقدروا لأنكم جميعا تعلمون أنها مجرد غطاء لجهلكم فالمطر إله، والأرض إله، والشمس إله، والريح إله، والشِّعر إله، والحرب إله، والشجاعة،

والغيرة، والحب، والانتقام، لكل منها إله، فلمَ لا يكون لغازات بطني إله؟ ".

فانفجر الحارس الثاني ضاحكًا.

***

(4)

بعد مُضي ما يزيد على قرابة أسبوع، وباعتقاد الحارسين أنه مهما يقاوم سيمون، فإن قواه ستخور وسيلقى حتفه، إلا أن ما حصل هو العكس. ففي صباح أحد الأيام، وبعد مغادرة بيرو سجن التيلانيوم، سمع الحارس الأول حديثًا يدور بالأسفل، تساءل: كيف يُعقل ذلك؟ اقترب من فوهة بالأرض ليطل على سيمون من السقف، فرأى الشيخ واقفًا يتحدث نحو الحائط،استغرب الحارس أو بالأحرى تملّكه الرعب، كيف تمكن العجوز الذي ظل دون ماء ودون طعام لأكثر من أسبوع، ليس فقط على قيد الحياة، وإنما واقف منتصب وكأنه لا يزال شابًّا؟ متحدثًا بكل هيبة وأريحية، ومع مَن يتحدث؟ أيتحدث مع إله هو الذي كان يجحد بالآلهة؟ هل هو ساحر مشعوذ؟ لا يمكن إلا أن يكون ساحرًا مشعوذًا؟ وأرهف السمع لما كان يقوله بالأسفل، لربما يتمكن من فهم ما يجري.

سيمون: من أفكار براهما وتأملاته، ستظهر بيضة..هذه البيضة ستفقص عن العالِم والموجودات المختلفة والمتنوعة..وليس هذا فقط، بل حتى عن براهما ذاته، الذي يُعتبر خالقًا خلق نفسه..

ستسأل وتقول:

"كيف خلق نفسه؟"

وسأجيبك:

"من البيضة، من الفكرة، فكرّ في نفسه فأوجدها، تبدّت له".

ومنه فإن براهما هو القوة الكونية المطلقة، والدافع الخفي الذي يُحرِّك الموجودات ومنها الإنسان.. أجل، أجل مثل آمون الفرعوني! إنها الأفكار نفسها، كأسس جوهرية لدى أغلب الديانات، في القدِم أو في الحاضر على حَدٍّ سواء.. لكن كيف تبدّى براهما؟ هذا هو ما لن تقدر على إدراكه؟ ليس لأن ذلك سِرٌّ مقدّس! يجب أن تعلم أنه ليس هناك من سِرٍّ مقدس! فكل الأسرار في المخطوطات وعلى الجدران.. لكني سأخبرك.. أنا الذي جالت عيناه وقدماه كثيرًا.. لقد تبدى براهما لنفسه بثلاثة أشكال.. ستستغرب وتقول: ثلاثة أشكال؟ لَمَ ثلاثة أشكال أو ثلاث هيئات بالضبط؟ لكن قبل طرحك هذا السؤال.. يجب أن تعرف ما هذه الهيئات الثلاث، وسأخبرك كما وعدت: إنها براهما الخالق. فيشنو الحامي. شيفا المدمر.

هذه هي عقيدة تريموريّ.

"تريموريّ" همس الحارس دون وعي منه، وفجأة التفت سيمون نحو السقف مُثبّتًا عينيه اللامعتين على الحارس، الذي جمد في مكانه من الفزع، غير أن سيمون سرعان ما عاد للنظر نحو الحائط، وتابع كأنه يعي ما يجول بخاطر الحارس دون أن يعيره أي اهتمام، الحارس الذي لم ينتبه إلى أن صديقه الحارس الآخر، يقف بالقرب منه مُرهِفًا السمع، والذهول مرتسم على وجهه.

سيمون:

– تريموريّ تعني التمثُّلات أو الأشكال الثلاثة بالهندية السنسكريتية.. هذه التمثلات الثلاثة هي الوظائف الرئيسية لبراهما.. الخلق، والحفظ، والتدمير.

الآن سأكشف لك لِمَ بالضبط ثلاث هيئات وليس أكثر؟ لأن براهما قمر! والقمر بيضة، وكيف يتجلى القمر؟ لو أنك تدرك أن القمر هو الظاهرة الأكثر إلهامًا للفكر البشري، لربما استطعتَ الإجابة..

لكني سأخبرك حتى لا أخلف وعدي..

يكفيك أن تكون فلاحًا وتقف بالحقل كل ليلة.. تتطلع للسماء حتى تلحظ براهما وهو يتجلّى لك بتمثلاته.. من السهل النظر للقمر بعكس الشمس التي تُؤذِي العين وتشوّش الرؤية.. ستلمح أن براهما

أو القمر أو البيضة أو سمِّ ما شئتَ ذلك القرص، الذي يطل على روما كل ليلة..

ستلمح كما أقول تعرّضه لثلاث أطوار أو تغيّرات.. طور نشوئه حتى يكتمل كقرص، طور تجليه كاملًا في السماء، طور اختفائه بالتدريج حتى رحيله. لتُعاد هذه الحركة الثالوثية باستمرار، وهي حركة تعادل خصائص براهما..

فبداية القمر، هي الخلق مُمثلًا ببراهما. التجلي الكامل، هو الحفظ مُمثلًا بفيشنو. ثم الضمور، وهو الدمار مُمثلًا بشيفا. فإذا كنا نعتبر القمر تجليًا للإله.. سنستبطن حتى لو كنا متوحشين وليس رومانيين، الرسالة التي يقدمها من خلال دورته الشهرية.. سننسج الأساطير والحكايات المفسرة لهذه الظاهرة وللظواهر كافةً كذلك..

فهذا التفسير يشمل حتى الدورة السنوية، وكل ظاهرة نمثلها بإله.

أو ليس هذا ما نزال نفعله حتى الآن؟ إن الفكرة الجوهرية للأساطير ولرمز براهما، رمز الثالوث، هي رحلة الإله وصراعه الملحمي..

ها أنا نزلتُ،

وخُلقت هنا من جديد،

من بيضة ابنتي

تجلّيتُ لنفسي

كما كُنتُ

وكما أكون

وكما سأكون،

وسأصعد.. سأصعد.. سأصعد،

كما يصعد الزرع،

وسأشرق

كما تشرق الشمس بالأفق.

مُنعت إثر ذلك بيرو من زيارة والدها، شك الحارس الأول في أن الأمر يقف خلفه عمل سحري، غير أن الحارس الثاني والذي لم يكن يقلُّ عنه هلعًا، هدّأ من روع صاحبه عبر توضيح أنه سواء كانت بيرو ساحرة أو حتى سيمون، لاستطاع سيمون الخروج، كل ما يستطيعان فعله الآن هو وقف زيارات بيرو حتى تتضح الأمور.

صُدمت بيرو بما سمعت، وخشيت التمرد على هذا القرار المتعسف من الحارسين اللذين لا تتجاوز سلطتهما حراسة والدها في سجنه، غير أن خوفها من تطور الأمور جعلها تتراجع وتلزم الصمت حتى لا ينكشف أمرها وما سيجره ذلك عليها من ويلات..

ظلّت بيرو أيامًا تُفكّر كيف ستتمكن من العودة لإسعاف والدها، سيموت دون ثديها. هل تستسلم وتتركه هكذا يواجه مصيره بالموت جوعًا وحده؟ هل تقيم ضجة على قرار منعها من زيارته وهو حقها بموجب القانون؟ حتى لو أدّى ذلك للحكم عليها بعقوبة؟ ما الذي بيدها لتفعله؟ أي حيرة وجدت نفسها بها؟ بين أن تتنازل عن مساعدة والدها حتى ترعى ابنها الذي يحتاج إليها؟ أو أن تتشبث بموقف مساعدة والدها؟ وقد تفقد ابنها وهو كل حياتها بعد أن فقدت زوجها! لم تجد بيرو من سبيل سوى البكاء على عجزها والحزن على مصير والدها.

توفي سيمون بعد قرابة أسبوعين على سجنه.

لم تكن روما تعير اهتمامًا مصير جثث المعدومين، سواء أُلقيت بالنهر أو أُحرقت أو حتى وُهبت طعامًا للحيوانات.

لم تستسِغ بيرو بعد نزول خبر وفاة والدها عليها كالصاعقة، تعرّض جثته للتنكيل، يكفيه ما تعرض له من عذاب ومحن بآخر أيام حياته، هو الحكيم المحب للحياة.

لن تسمح لأحد بأن يعامل والدها كأنه طائر ميت لا قيمة ولا أهل له.

توسلّت إلى الحارسين لمنحها جثة والدها، فبكل الأحوال سيتخلصان منها، فعلى الأقل تحفل بضمان دفن يليق بأبٍ كان كل شيء بالنسبة لابنة مفجوعة.

لم يهتم الحارسانِ لأمر سيمون، فبموته تأكدا، خاصة الحارس الأول، أنه كان مجرد شخص عادي، يهلوس بتخاريف، وقد لقي عقابه من القانون كما من الآلهة.

ولو كانت بيرو ساحرة لكانت تسببت في كارثة لروما منذ يوم النطق بالحكم.

بذلك، فرّت بيرو بجثة والدها رفقة مجموعة من الجوّالين كانوا أتباعًا لوالدها يؤمنون برؤاه وأفكاره، ما دام لم يعد بإمكانها البقاء، فكل رقعة من المدينة تذكّرها بالحزن والبؤس وغياب أحبّائها، ولا يُعقل أن يكبر رضيعها في مكان ألحق الذل والمهانة بجدّه.

لقد كان الجوالون يكنّون احترامًا لوالدها، إنه زعيمهم، ولن يساعدها أحد بروما في السهر على حماية ورعاية ابنها مثلهم، فبالأخير هو بين من اعتبروا جده حكيمًا، يرون فيه دمه وحضوره، شيئًا ملموسًا من كاهنهم ومعلّمهم.

لا تتعلق الحياة بروما، روما الظالمة مصيرها الانحدار، إنما "حيث يكمن الحب والتسامح هناك الحياة" كما كان يقول والدها.

(5)

ساحة بيازا ديلا سينيوريا، فلورانسا، 1498 ميلادية.

بعد إعدام جيرولامو سافونارولا بتهم الهرطقة وافتراء النبوءات وإثارة الفتن، شدّد البابا إسكندر السادس على ملاحقة أتباع سافونارولا وكل من تخوّل له نفسه انتقاد سلطة الكنيسة، وإعدامهم حرقًا.

أُلقيَ القبض على جياكومو دا براغمو بعد أسبوعين من إعدام سافونارولا، بتهمة الهرطقة وإهانة الكنيسة وسيادة البابا.

تم تثبيت التهمة خلال المحاكمة، وأُمر بإعدامه حرقا ب—بيازا ديلا سينيوريا أمام أنظار الجميع.

اقترب القس من جياكومو الذي جُرّد من ملابسه بمنصة الإعدام وطلب منه إعلان توبته، وسؤال الغفران كآخر مطلب لخلاص روحه.

غير أن جياكومو دا براغموا انفجر في وجهه صارخًا:

– لينفجر قلبك الخبيث..أيها الشيطان المتخف في ثوبٍ كنسي.. شعائركم لا تعدو كونها مجرد شطحات شيطانية.. لقد نزل الشيطان من الجنة وسكن قلوب رجال الكنيسة.. لا وجود للشيطان إلا في قلب الكاهن.. الكنيسة هي مسكن الشيطان بالأرض.

لم ينطق القس بكلمة، اكتفى بهزٍّ رأسه إشارة للجلاد الذي كان يقف جانبًا، تحرّك هذا الأخير وجرّ جياكومو نحو حبل المشنقة، ليطوّق به عنقه.

غير أن جياكومو لم يتوقّف عن الصراخ بقوله:

– من يصدق خرافة ثالوثكم المقدس؟ ما الثالوث المقدس؟.

بدأ صوته يختنق عندما جذب الجلاد الحبل ليشتّد حول عنقه، وهو يتابع:

– إنه الولادة، الحياة، الموت.. ولادة الإله، تجلّيه، نهايته..ظهور القمر،اكتماله،اختفاؤه.. شروق الشمس،سطوعها بالظهيرة، غروبها.. نمو النبات، اخضراره، تيبّسه.. براهما، فيشنو، شيفا..

بدأ الجلّادان اللذان كانا يلتفان بالسواد من الرأس إلى أخمص القدم خلفه، بجر الحبل، فانخطفت جثته صاعدة ببطء نحو الأعلى، مع تعالى صيحات الحشد بالأسفل.

احتقن وجهه بالدم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. ثم أُشعلت النيران بالحطب المكوّم أسفل جثّته المعلّقة.

عاد القس للاقتراب من المحرقة، ولكن هذه المرة ليُلقي بمخطوط نحو النيران، وهو يهمس لنفسه:

– لعنة الرب عليك أيها الهرطيق القذر.

بين الحشد المتناثر بأرجاء الساحة، كان كل من غريغوريو فلاتشيدي بهيئته الضخمة وبرناردينو دي أنجيليس الأصهب الشعر واللحية، وكلاهما فيلسوفان أفلاطونيان، يراقبان المشهد من بعيد.

قال برناردينو:

– جياكومو لم تكن له علاقة بجيرولامو..صحيح أنهما يلتقيان في انتقاد الكنيسة..لكنهما يفترقان في نوعية الخطاب.

غريغوريو:

– ما يعني؟.

برناردينو:

– ليس للهرطقة منهج معين.. إنما هي الخروج عن منهج معين.

اهتزّ غريغوريو بجسده الضخم كأنه يكبح ضحكته وهو يقول ساخرًا:

– هأ، من هذا المنظور فغالبية البشر مهرطقون!.

التفتَ برناردينو نحوه قائلًا:

– الهرطقة هي تهديد سلطة الكنيسة، إيذاء حضورها.

قال غريغوريو:

– تقصد تأثير الأفكار الهرطوقية التي تمس جوهر الكنيسة، الأفكار التي يمكن أن تقلب الوضع لغير صالحها، وتمرّد الناس على عدم الخضوع لوصاياها.

برناردينو:

– تمس سلطة البابا حتى نكون واضحين، تتغير الكنيسة بتغيّر الباباوات.

غريغوريو (مازحًا) وهو يهز كتف صديقه بضربة من يده:

– اصمت، اصمت، وإلا سنراك الأسبوع القادم معلّقًا بالهواء تحترق هناك.

صمت برناردينو بُرهةً وهو يسرح بنظره نحو النيران، وقال فجأة:

– لربما البابا مُخطئ، وهذا الخطأ يحتمل منطلقين، إما من منطلق اضطلاع مغلوط، وإما من منطلق الخبث. بالنسبة لهذا الأمر الأخير فلندع الحكم للرب ولنؤمن بالأحرى أن اضطلاعه سيئ، بخصوص

قضيتنا فإنني قادر على إثبات أن البابا أُقنِع زيفًا ومن ثمّ، فإن أي شخص يتمسك مُصرًّا على عزلي كنسيًّا، ويؤكد عدم قيامي بالتبشير بهذه التعاليم التي تحارب مملكة المسيح وتدعم مملكة الشيطان* فإنه هو نفسه هرطيق، ويستحق العزل من الكنيسة.

توقف، ثم تابع:

– هذا المقطع هو الذي جلب له الويل.

انتفض غريغوريو وهو يقول:

– لا، جياكومو كان يُبشر بعقيدة الهندوس.. لقد اختلطت عليه الأمور بسبب إيجاده لمخطوط منسوب لقديس روماني اسمه سيمون.. لكن كأنني سمعت مثل هذا الكلام!.

قال برناردينو:

– لم أقصد بكلامي جياكومو.. بل جيرولامو سافونارولا! والمقطع من عظته بكنيسة سان دومينيكو قبل خمسة أشهر.. تلك اللحظة هي السبب فيما يقع الآن.

– آه تذكرت.. لقد أدرك البابا ساعتها أن سافونارولا لن يتوقف إلا بالقتل.

قال غريغوريو، ثم أضاف:

– وإن لم تخني ذاكرتي.. فقد سمعته ساعتها يقول:

" لم أُكلّف بالتبشير من طرف أي رجل في هذا العالم أو من قِبل أي رب ولكن مِن طرفه هو رب الأرباب ومن طرف الثالوث المقدس".

بعدها كل من تطرّق للحديث عن الثالوث مصيره كان مثل مصير سافونارولا.

أكّد برناردينو وهو يضيف:

– ألم أقل إن جياكومو وجيرولامو يلتقيان في انتقاد الكنيسة ويفترقان في نوعية الانتقاد؟

– فهمت.

قال غريغوريو وهو يردد ما قاله ذات مرة جياكومو دا براغمو:

– ليس الثالوث المقدس سوى العجز عن تفسير الولادة الإنسانية، وسبب العيش بالحياة، وماهية الموت، الأب المنجب، والروح الحامية، والابن المقتول.

لقد شكّل الثالوث جوهر الفكر البشري الذي أصبح مؤسسة دينية تعلن عن نفسها بالمسيحية الخرقاء.

هز برناردينو ظهر غريغوريو بضربة من يده وهو يقول:

– اصمت، وإلاّ فأنت الذي سنراه هذه المرة يحترق هناك.

– عفوًا حمقاء، حمقاء وليس خرقاء.

أضاف غريغوريو ساخرًا.

بينما برناردينو يلتفت حواليه، ويَكِزُ فخذ غريغوريو بقبضته مُنبِّهًا إلا أن أحدهم يقترب منهما.

***

* يحتفظ هنا جيرولامو سافونارولا بصيغة الاتهام الذي ينسب لتعاليمه باعتبار أنها تحارب مملكة المسيح وتدعم مملكة الشيطان.

(6)

جامعة ميلانو، إيطاليا، 2014 ميلادية.

قال ألبرتو بينما هو يمرر أصابعه بين خصلات شعره الأبيض:

- بُنيت المسيحية كانشقاق عن التوراتية اليهودية.. على التثليث أو الأقانيم الثلاثة للإلهة الواحد.. كما نعلم، الأب، الابن والروح القدس.

فالإله الواحد الذي يتجلى بثلاثة أشكال بالمسيحية.. هو الإله القديم الذي كان يتجلى بالقمر على ثلاث مراحل.. حتى أننا نجد الرمز نفسه استمر لدى الديانتين نفسهما.. الأمومية والأبوية دون أن يتغير، ما يؤكد تشاركهما الجوهري.. إنه رمز الصليب.

فبالدين الأمومي القديم كان يُرمز للإله بخط عمودي، كإشارة للشجرة أو السنبلة فوقها قمر بشكل هلال، وأكثر من ذلك أن رسمه

كان يتكرر بثلاث نسخ في شكل واحد، كرمز واحد، وهي تجسيد للأطوار الثلاثة للقمر والزرع..وأقصد بها الولادة/النمو/الموت.. كما سنرى بالشكل.

ظهرت صورة نقش فينيقي يصوّر أطوار القمر الثلاثة، عبارة عن ثلاث أعمدة يحمل كل منها قمرين يعلوهما هلال.

تابع ألبرتو:

– الشكل يضم ثلاثة أشكال لكنه شكل واحد في الوقت نفسه.. كالآلهة الثلاثة التي تُعتبر إلهًا واحدًا بالهندوسية، والشخصيات الثلاث التي تحدد شخصية واحدة بالمسيحية، شخصية الإله.

لوحّ بذراعه هكذا في الهواء وكأنه سيلمس شيئًا بسبابته وهو يقول:

– لنعد قليلًا للوراء.

وتابع بينها يقوم بعقد ذراعيه على صدره:

– تصف الإلهة عشتار نفسها بقولها:

"أنا أمي أبي وأخت زوجي وهو من نسلي".

ما يعني أن الأب والأم والابن، هما ثلاثة أوجه لإنسان واحد. الذي يولد منها،ويعيش معها،ويموت قبلها أو بعدها.. فهو ابن عشتار وعشتار نفسها.

إن مختصر القصة هو أن: الولادة. الحياة. الموت. ثالوث مقدس شكّل مكونات الفكر الإنساني.

فتح ذراعيه كأنه سيعانق شخصًا وصاح:

- خذوا براهما وفيشنو وشيفا..إنهم إعادة صياغة لدورة القمر بلمسة دينية.. التجلي/ الاكتمال/ الضمور.

كما جسدها أسطورة عشتار.. الخالق/الحياة/الموت.

لتصبح تمثيلية الابن الذي أنجبته السيدة العذراء.. المولود/ الحي/ المقتول.

هذا الثالوث الجوهري المقدس بالفكر الإنساني.. سنجده بالعديد من الثقافات والأديان.

بدأت الصور تتابَعُ على لوح العرض، بينما ألبرتو يسايرها معلّقا:

- إيزيس، حورس، أوزوريس.. بمصر الفرعونية. سين، عستار، شمش.. لدى الكلدانيين. إيل، عشتار، بعل.. عند الفينيقيين. أثينا، أبولو، زيوس.. باليونان. مينرفا، أبولو، جوبتر.. عند الرومان. درهما، بوذا، سانغا.. في البوذية.

ثم ظَهَرَ نصب فينيقي يُجسِّد ثلاثة أعمدة تحت سماء يتوسطها هلال وقرص.

قال ألبرتو:

– الهلال بالأعلى رمز الولادة، والقرص المكتمل إشارة للأم الواهبة للحياة كرمز للحياة، والأعمدة هي تاريخ الحياة أو التجلي.. فالابن يولد، ويكبر، ثم يشيخ.

يعايش ثلاثة مظاهر واضحة وضوحها في الكون.. فكون القدماء ارتبط بالشمس والقمر، ولم يكن الإنسان منفصلًا عنها كذات وقدَر.. فهذه المفاهيم حول الذات المنفصلة بمسافة عن الطبيعة لم تبرز بأوضح صورها إلا مع الفلسفة الغربية بعد ديكارت.

بذلك فالمسيح المصلوب الذي يُمثل الأب والابن والروح القدس في آن واحد.. نراه قبل ذلك لدى الهندوس الذين عرفوه بمفهوم سافتري والذي هو: سافتري أي الأب، وهو الشمس أو النور السماوي.

آكني أي الابن.. يمثّل أشعة الشمس النازلة من السماء للأرض.

فايو أي الروح، وهي الريح أو النسيم أو نفحة الهواء التي تتجول في الأرض.كما تتجول روح الإله في رحم الأم قبل الولادة. أما بالنسبة للصليب..

فلو عدنا للشكل السابق الذي يصور الآلهة الفرعونية، سنلاحظ أن أغلبها تحمله.

ظهرت صورة 6 آلهة فرعونية بعضها برؤوس حيوانات، وهي حورس، إيزيس، توت، أوزيريس، أمون رع، أنوبيس.

ومن بينها جميعًا لم يكن سوى توت إله الحكمة برأس طائر، وأوزيريس، من لا يحملان الصليب.

علّق ألبرتو:

– ويبدو الصليب كاملًا بوضوح في أيدي الآلهة..نظرًا لأنها تمسكه من القرص أي الشمس رمز الإله.. القرص الذي يعلو حرف T ويُمثل هذا الحرف الشجرة أو الزرع الذي ولد من الأرض، الأرض الأم.. الإلهة التي ولدت العالم والموجودات. والشجرة هي ابنها الذي أنجبته من رحمها.

بحسب التاريخ الشعبي للقبائل البدائية، فقد عرفت الأرض الزراعية طقوسًا دينية لمساعدتها على الإخصاب والولادة.. فالإنسان البدائي الذي كان يُسقط عالمه الإنساني على الوجود ليمنحه واقعًا شبيهًا بالواقع الانفعالي الذي يعيشه.. كان يقوم بطقوس يظن أنها ستجعل الموجودات تعرف نفس النتائج التي يعرفها هو عند قيامه بتلك التصرفات.. كممارسة الجنس الجماعي فوق الحقل.

أو الاحتفال بطقس زواج إنساني هناك.

كذلك تقوم بعض القبائل الهندية والأفريقية بشق الأرض برماحها خلال رقصة دينية.. كإشارة للقضيب المخصّب لرحم الأرض.

فهنا يستمر اعتقاد ما بأن ما يساعد الأرض على إنجاب ابنها سواء أكان شجرة أو نخلة أو سنبلة..إلخ، هو تحفيزها من خلال ممارسات إنسانية تخدم هدف الإنجاب.. سواء كطقس فعلي مباشر أو رمزي.. فتموز، سيكبر كفتى جبلي يمرح ويلهو ويصطاد الحيوانات بالغابة، ويسبح بالبحيرة مثله مثل أي شاب.. لكن عشتار حاكمة العالم السفلي، كرمز الموت، ستقع في غرامه.. لترسل الخنازير، أو العفاريت حسب روايات أخرى، التي ستقوم بتقطيعه وإحضاره لها لمملكة الجحيم.. الأمر الذي سيصدم أمه رمز الحياة التي ستحزن وتبكي عليه أمطارًا.. لكنها لن تستسلم للحزن بل ستقرر نزول العالم السفلي، وإحضار ابنها حبيبها.. فيعود تموز مجددًا للحياة من مملكة الموت، بعد أن اجتازت به أمه بوابات العالم السفلي السبع.. فيظهر تموز بالشهر السابع من السنة "يوليوز".

وهو الشهر السابع الذي يحمل نفس الاسم تموز حتى الساعة بمنطقة الهلال الخصيب.

بهذا يقيم البشر احتفالات العودة،وذلك بتمثيل رحلة الإلهة وابنها بطقوس موسم الحصاد. هذه الرحلة ستتكرر كل سنة.. لينقذ بها تموز حياة البشر من الجوع.

فبحسب الأسطورة فإن دم ابن الإلهة الذي انسكب على الأرض هو الذي أنبت الزهر والشجر والحقول الزراعية.

لذلك فإنه كان واجبًا على تموز أن يُعيد الأحداث نفسها لخلاص البشر، كما مات المسيح خلاصًا للبشر من الخطيئة.

فكلّ من تموز والمسيح يشكلان جوهر فكرة البطل الذي يهب حياته إنقاذًا لشعبه..رمز التضحية والدفاع عن الحق الإنساني بالحياة.. فابن الإلهة يموت حتى يتسنى للناس أن يظلوا على قيد الحياة، والقصة تكشف عن إدراك العقل البشري لمفهوم الخير والشر وتعاقبهما على العالم الطبيعي أو إسقاطهما..

فقوى الموت الشريرة، تخطف الحياة.. لكن الإصرار على الحياة بتجديد البعث وإعادة الإنجاب، تتغلب عليها بالمقابل كقوى تمثل الخير.. لهذا سيصبح الإله فيما بعد جامعًا لقوى الخير والشر وغير منفصم، لكنه سيُسخّر الشر خدمة للخير، وسنتطرق لهذه النقطة لاحقًا.. ونبيّن تأثيرها الفني.

***

(7)

المحمدية، المغرب، 2015 ميلادية.

لا تعرف توماسا كيف وجدت نفسها بالغابة ليلًا، فجأة سمعت صوت عويل.. "إنه ذئب"، بدت لها الغابة غير مألوفة.

– أي مكان هذا يا ترى؟ وهل تعيش الذئاب هنا؟.

تساءلت بينها وبين نفسها قبل أن ترفع نظرها نحو السماء المظلمة، غير أن الغريب فيها ليس غياب النجوم بل القمر الذي بدا كأنه يقترب باتجاه الأرض كمركبة فضائية، أو كيترك قادم نحو الأرض ببطء.

عوى الذئب مرة ثانية وسمعت توماسا صوت خشخشة بالقرب منها، فظهر من خلف الشجرة رجل يرتدي زيَّ راهب من القرون الوسطى ويضع قلنسوة على رأسه، فخاطب توماسا:

– يخصّب الله العقل فيدرك كل الأفكار الخيّرة وتلك الخاضعة لتأثير الشيطان، لا مكان في العالم خالٍ من الشياطين، وأتحدث عن تلك المنفصلة عن الله، ما يدخل فينا يزرع طاقة بذرته، والعقل بتلقيه هذه البذرة يُدرك الزناة، القتلة، قتلة الآباء، المجدفين، الكفرة، الإرهابيين، المتقلّبين في المصائب، وكل أعمال الشياطين الأخرى الشريرة.

كان صوت موسيقا كلاسيكية هادئة يُصاحب كلام الرجل، لكن مع نهاية خطابه أحدث اقتراب القمر ضجة كأنه مكوك فضائي، فانطلق عواء الذئب مرة ثالثة، واختفى الرجل، بدأ صوت الموسيقا يعلو مع عواء الذئب وضجيج القمر، فوضعت توماسا يديها على أذنيها وجلست من شدة الضغط والإرهاق..

لتستيقظ فجأة فتجد نفسها فوق السرير بغرفة النوم،

– آه إنه حلم فظيع.

قالت في نفسها لكنها ما تزال تسمع صوت الموسيقا.

كانت الموسيقا تصدر من هاتفها، نظرت توماسا للهاتف الموضوع فوق رواية "جزيرة د.مورو"– لهربرت جورج ويلز– التي كانت تطالعها البارحة، وسرير صديقتها جميلة بجانبها فارغ.

حملت الهاتف وقد توقف الرنين، وسُجِّلت على شاشته "1 مكالمة لم ترد عليها"، وفجأة انطلقت مقطوعة "ضوء القمر" لبيتهوفن من الهاتف، ضغطت على زر الرد:

– ألو توما، آسفة على إيقاظك،أردتُ فقط سؤالك: هل ترغبينها بالفستق أم بالشكولا؟

– بالفستق.. لا تتأخري.

كانت توماسا سعيدة بوجودها مع صديقتها وزميلتها جميلة بنجلون التي كانت ترى أنهما يتشابهان بعدة أمور، الاختلاف البسيط هو وزن جميلة الزائد قليلًا، شعرها البني، وعيناها اللوزيتان، حيث لون عيني توماسا أزرق.

توماسا لم تجد أي شبه بينها وبين المغنية "نيومي"، كما يذهب في ذلك زملائها، باستثناء لون الشعر البرتقالي.. فلو صبغت شعرها بالعسليّ سيجدون أنها تشبه المغنية كيارا غاليازو، ولو صبغته بالأسود سيقولون إنها تشبه فرانشيسكا لوتا! بالأخير هي لا تشبه سوى نفسها، أما وجدانيًّا فهي تشبه جميلة، هذه الأخيرة التي أصرّت على دعوة توما كما تحب تسميتها لقضاء العطلة ببيتهم الشاطئي بمدينة المحمدية؛ وكانت توماسا بأمسِّ الحاجة لتغيير الجو.

زيادة على أن صديقتها جيمي، كما تلقّبها، أكدت أنها ستحب المكان، وستمنحها الأجواء نَفَسًا منعشًا لروحها الإبداعية.

كانت تفكر باستغلال العطلة للاشتغال على إتمام رواية تمسُّ فيها ما انفلت من أستاذها ألبرتو، الذي ألّف رواية أحدثت جدلًا واسعًا نظرًا لتطرّقها لمواضيع دينية وفنية حسّاسة.

زيادة على ما تناقلته الصحف بأن الأستاذ اعتمد في روايته على مخطوطة قديمة اقتناها بمزاد. تطرقت رواية "سيمون وبيرو" لألبرتو غولينو للعلاقة التاريخية بين الفن والدين، لكن ما أثار الجدل هو تصويره لسيمون الذي أثّر في تاريخ الفن بمشهد الرضاعة المثير للريبة أو ما صار يُعرف ب– Caritas romana، صوّره كقديس خلّف إنجيلا ينتقد فيه المؤسسات الدينية، مسيحية كانت أو غير مسيحية.

من ضمن ما ذكره ألبرتو اعتباره أن الأسطورة تتطور عبر تاريخ الفكر وما يشهد بذلك تطور معالجة مشاهدها الفنية. غير أن توماسا ترى العكس، فحيث بيّن هو أن جوهر الفكر واحد، فهذا من ثَمَّ يكشف أنه لا يتطور بقدر ما يتلبّس المميزات البيئية والملامح الاجتماعية لكل منطقة مجتمعية؛ أما المشاهد الفنية، فهي تعود لمخيّلة كل فنان ورؤيته الشخصية للموضوع.

لا يتطور الفكر من منظور توماسا بتغيّر سيناريو الأسطورة أو زيادة مداخلات تُكثّفها، إنما يتطور انطلاقًا من قلب الأساس وتغيّر طريقة التفكير، ما يعني هدم الأسطورة كمنطلق لمعالجة الواقع، والانطلاق من أرضية جديدة، كما حدث بالفيزياء، من اعتقاد بأن

الكواكب آلهة أو أجسام تحركها الآلهة، إلى الاعتماد على قانون الجاذبية. ترى توماسا أن ألبرتو أهمل الممارسات البدائية باعتبارها ممارسات ولّت مع حركة التاريخ، ولم يعر اهتمامًا أنه في عُمق العولمة لا تزال الرؤى البدائية مُتداوَلة كأنها لاتخضع للزمن أو حتى تتسلّل بالرغم من صيرورة الزمن. وذلك ما أكدته جيمي خلال محادثتهما حول الموضوع، بأن ما تشير له توما لا يزال مُشاهَدًا بمسقط رأسها. وبإمكانها جعلها تُعاين ذلك بنفسها.

خرجت من الحمام ومن تأملاتها، ونزلت للطابق السفلي نحو الصالون المؤثث بفخامة، بدا الجو هادئًا بالداخل مع صوت موسيقا كلاسيكية.

– هل تعرفين أنه كان سيصبح جزارًا؟

سمعت توماسا ذلك من أسامة بينما هي تجلس على الأريكة – أسامة شقيق جيمي التوأم – وكان لا يزال واقفًا بصدره العاري مرُكزًا انتباهه على شاشة التلفاز المسطّحة التي تعرض جدول مقابلات كرة القدم لهذا الأسبوع.

– مَن؟

سألت توماسا.

– صاحب المقطوعة الموسيقية.

– آه، تقصد "دڤوراك"..

تبسّمت توماسا وأردفت:

– كيف ذلك؟

التفت بنظره نحوها بينما هو يجيب:

– أنتونين ليوبولد دڤوراك.. أخرجه والده من المدرسة ليعلّمه المهنة.. غير أنه تراجع عن ذلك عندما لمح موهبة ابنه الموسيقية.. فأرسله إلى عمه ليتابع دراسته، ولولا ذلك لما كنا الآن نستمع ربما لسمفونية "العالم الجديد".

– طبعًا إنها رائعة، وهي أشهر سمفونياته. ذكّرْتني ب"بينجامين ويست".

– من هو؟

سأل أسامة.

– رسّام ولد ببنسلفانيا بالولايات المتحدة.. كان متخصصًا برسم اللوحات التاريخية، وعندما كان "ويست" صغيرًا قرَّر ذات يوم أن يرسم أخته ما دامت أمه غير موجودة بالبيت.. لكن حينما عادت الأم وجدت أنه أحدث فوضى بالبيت والطلاء يملأ كل مكان.. فانزعجت طبعًا لكنها قبل قيامها بأي رد فعل رأت اللوحة فلمحت موهبته..

فاقتربت منه وقالت:

– يا لَها من صورةٍ رائعة لشقيقتك.

وقبّلته..

كتب عن ذلك ويست حينما كبر:

"هذه القبلة جعلت منّي رسّامًا".

عاد بتركيزه نحو الشاشة وهو يقول:

– الوالدان لهما دور مهم في تحديد مستقبل الطفل أو تدميره.. هل تعرفين إدموند هالي؟ هالي كان طفلًا صغيرًا شغوفًا بمراقبة النجوم، وعندما لاحظ والده اهتمام ابنه بالسماء.. أحضر له تيليسكوبًا لمراقبة الكواكب عن قرب.. فتزايَد شغف هالي بعلم الفلك ودراسة الأجرام السماوية.. هل تعرفين ماذا حدث بعد ذلك؟ سُمّي مذنب في السماء باسمه لأنه اكتشفه، مذنب هالي.. لقد خلّد ابن بائع الصابون اسم عائلته في السماء.

– وبعض الفضل من ذلك يعود للوالد طبعًا..

عقّبت توماسا.

حملت توماسا كتابًا كان موضوعًا فوق الطاولة بجانب علبة زجاجية مملوءة بقطع شوكولا..

– أنت تعلم أهم فرقة من الجحيم، ستيفن كينغ، هل أنهيتها؟..

سألت توما أسامة الذي أجاب وهو يقترب ليجلس:

– لقد قرأتها البارحة.. لم أستطع إنهاءها تملكني التعب عندما هربت ماري من المطعم ولحق بها ريك نيكلسون وبودي هولي.. سأنهيها اليوم.

كانت توماسا تمسك بالرواية وتُقلّبها كأنها قطعة آثار نادرة، فعلّقت قائلة:

– قصة مثيرة.. رغم أن نهايتها بدت غريبة! أظنُّ أن المؤلف أراد أن يقول أن مغني الروك أند رول لا يموتون..

توقفت لحظةً ركّزت فيها على صورة الغلاف ثم تابعت:

– أعجبني المقطع الذي قال فيه أن الزوجين اللذين يقضيان مدة 10 أو 20 سنة معًا يصبح بإمكانهما قراءة أفكار بعضهما البعض.

جلس أسامة وهو يقول:

– تقصدين أنهما يفهمان بعضهما بعضًا دون أن يتحدثا.

– ليس هذا فقط بل من الممكن أن يشعر أحدهما بإحساس الآخر.. فعندما نكون مهتمين بشخص ما، فإننا نحفظ كل ما يتعلق به من عادات وتصرفات وردود أفعال.. ما يحزنه وكيف يبدو عندما يحزن، وما يفرحه وكيف يبدو عندما يفرح.. أو عندما يضجر.. أو

يشعر بالإثارة.. أو الملل.. نحفظ كل ما يتعلق به مثلما نحفظ قصيدة أو أغنية نحبها.. فما إن نسمع مقطعًا من تلك الأغنية أو جملة من تلك القصيدة حتى نتعرّف إليها.. كذلك فما إن نرى ملامح هذا الشخص حتى ندرك إحساسه..فنماذج ومعلومات كثيرة عنه خزّنّاها بالذاكرة.

– إذن فما إحساسي الآن؟

سأل أسامة مبتسمًا.

– أنت تشعر بالملل..

جاء صوت جيمي من جهة المطبخ، حيث عرجت للبيت من الباب الخلفي:

– قم لتستحم، وارتدِ ملابسك أنت لست بالنادي.. ثم اذهب للمطبخ لتناول الفطور.. لا تحشر أنفك في جلسات الفتيات..

وأقبلت على توماسا بالإيطالية:

– لقد أحضرتُ لك الطرطة التي تحبّينها بالفستق كما طلبتِ.. دقائق وستجلبها الخادمة مع الحليب والقهوة.

جلست جيمي لكن سرعان ما هُرعت جهة المكتبة وهي تقول:

– أريد أن أطلعك على شيء.

بعدما حكت لها توما عن حلمها بإيجاز.

عندما عادت وهي تحمل كتابًا عربيًّا، كانت الخادمة قد وضعت الفطور بالطاولة، اقتربت منها جيمي وجلست ملاصقة لها، فتحت الكتاب وأخذت تمرر إصبعها على عناوين فصول الفهرس..

– الباب الثامن والثلاثون.

قالت بينها وبين نفسها..

ثم بدأت تقلب الصفحات، وتوما تنظر لها مستغربة.

ذُهلت توماسا للمقطع الذي ترجمته لها جيمي حرفيًّا في الفصل الخاص بتأويل مشاهدة القمر في الحلم، من كتاب "تفسير الأحلام" لابن سيرين..

"رأت عائشة رضوان الله عليها ثلاثة أقمار سقطت في حجرتها فقصّت رؤياها على أبيها رضي الله عنه فقال لها: إن صدقت رؤياك دُفن في حجرتك ثلاثة هم خير أهل الأرض".

عقّبت على ذلك جيمي:

– هذا لم يقع ببال فارسك ألبرتو بمعرض هوسه بالتثليث.. حتى في الثقافة الإسلامية، يُنظر للنبي وأصحابه رمزيًّا كأقمار، وهناك نشيد عربي مشهور استقبل به أهل المدينة نبي الإسلام عندما هاجر إليهم ويبدأ بـ.. طلع البدر علينا.

ثم وقفت وهي تقلّد طريقة ألبرتو في الشرح:

- صنع نوح سفينته من ثلاثة طوابق، وثلاثة ملائكة زاروا إبراهيم، وثلاثة أيام قضاها يونس ببطن الحوت، وهي الأيام التي قضاها كلٌّ من عيسى وعازر بالقبر.. ثلاث مرات طلب عيسى من الأب إبعاد الكأس المرّة.. ثلاث مرات تبرأ منه بطرس.. ثلاث مرات ظهر لأصدقائه بعد الموت.. ثلاث هي الفضائل الإلهية.. ثلاث هي اللغات المقدسة.. ثلاثة هي أنواع الصوت.. صوت وصفير ونقر.. ثلاثة هي عهود التاريخ الإنساني، قبل الشريعة وفي أثناء الشريعة وبعد الشريعة...

قاطعتها توماسا ضاحكة:

- لقد اختلطت عيك الأمور، ما قلتِه يعود لأمبرتو وليس لألبرتو.

صمتت توما وهي تنظر لجيمي التي عادت تجلس ثم أردفت:

- إنه لانسجام رائع لتطابقات رمزية.

وكانت تلك الجملة إجابة نفسها غوليالمو على رئيس الدير الذي كان يستعرض على مسامعه التطابقات الرمزية الثلاثية والرباعية، برواية "اسم الوردة" للكاتب الإيطالي أمبرتو إيكو.

قالت جيمي، وهي تبتلع قطعة من طرطة الفستق:

– بإمكانك تجاوز ملهمك ألبرتو إذا استعنت بالتراث الإسلامي والأمازيغي لأنهما غنيّان بأمور كهذه.

لم تعر توما ما تتفوّه به صديقتها انتباهًا، كانت مستغرقة بكل حواسها في التلذذ بالطرطة.. الأكل هو الحب الأول للمرأة، ثم يأتي الرجل بالمرتبة الثانية، تلك كانت قاعدتها العاطفية.

***

(8)

التاسعة صباحًا، تمامًا في المكان الذي وصفته لها صديقتها البارحة.

يبدو كأنه حي روماني قديم، منازله بيضاء وأرضيته رمادية ذات أحجار مربعة كرقعة شطرنج، تبدو أزقة هذا الحي وكأنها تقعرت قليلًا من الوسط، لربما نتيجة لكثرة مرور المشاة والسيارات؛ طرق فجأة أحدهم على زجاج نافذة السيارة من جهة اليسار، التفتت فوجدته كما وصفته صديقتها جميلة:

– إنه يشبه ستالين كثيرًا.. انتظريه في نهاية الحي القديم عند مدخل الغابة.. سيلتقيك هناك.

فتحت له باب السيارة، فصعد وقال:

– انطلقي مباشرة لداخل الغابة.

ولم يضف بعدها كلمة أخرى.

انطلقت سيارة BMWx5 التي لم تكن تبعد عن مدخل الغابة سوى بضعة أمتار، لتشق طريقها مخلفة وراءها غُبارًا وأوراق شجر متناثرة في الهواء.

ظلت السيارة السوداء منطلقة بسرعة في خط مستقيم من مدخل الغابة حتى بدأت تترأى أمواج الشاطئ لسلمى، فصاح حسينة:

– توقفي هنا.

لم يكن الطريق طويلًا، أحست سلمى كأنها اجتازته في دقيقة.

ترجلت من السيارة وكان هو قد سبقها بخطواته السريعة باتجاه الشاطئ، فلحقت به.

انعطفا نحو اليسار بعد اجتيازهما مخرج الغابة نحو الشاطئ، ومشيا بضع خطوات حتى اقتربا من بيت قديم، أشبه بدير صيني.

توقف حسينة قبل أن يصل لباب البيت، وصاح بأعلى صوته:

– غ--وووخ.

فُتح الباب فطل منه وجه شبيه بذلك الرسام الذي مزق أذنه حتى يُظهر مدى حبه لإحدى النساء، لأنها لم تصدق أنه متيم بها؛ أو هكذا يقال عنه لكن تذكرت سلمى أن ذلك الرسام كان يعاني من الاضطراب النفسي وتقلب المزاج..

نظر نحو حسينة ثم أغلق الباب دون أن يقول أحدهما للآخر شيئا، ثم فتحه مرة ثانية ووضع ذلك الشبيه بالرسام "فان غوخ"، صندوقًا مغطًى بمنديل أسود، وأغلق الباب ثانيةً دون أن يتبادلوا أي تعليق.

وجدت سلمى إثر ذلك فرصة لتستجمع أنفاسها بعدما بذلت جهدًا باللحاق ومسايرة حسينة في مشيته السريعة فوق الرمال المتعِبة.

أشار لها حسينة بأن يتابعا سيرهما نحو الصخور البحرية القرمزية، بدت لها تلك الصخور كأنها طريق يشق البحر.

عند الاقتراب منها بدا لونها كأنه يميل للوردي الفاتح أو كأنه أحمر باهت فقد دمويته نتيجة تعرضها اليومي لأشعة الشمس التي تجفف كل ما تلمسه.

صعد حسينة إلى الطريق الصخري الذي يشق البحر بعد أن خطا بضع خطوات تبلل فيها حذاؤه بأمواج المد التي ترتمي لتغطي بداية الطريق، فاستدار ومد يده ليساعد سلمى التي بدت مترددة بالصعود، كانت مندهشة بذلك الطريق الصخري، الذي لو تمت رؤيته من طائرة هيليكوبتر فسيبدو كمحرار موضوع فوق الماء،بنهايته تشكلت الصخور كدائرة.

كانت المياه تلامس جانبي الطريق الصخري نظرًا لأن البحر في حركة مَدٍّ، ظلّت سلمى تتبع حسينة حتى وصلوا لنهاية الطريق، وبالضبط بمركز الدائرة التي تشبه دائرة المحرار عندما يصعد إليها السائل الأحمر.

وقف حسينة قُبالتها وأمرها بأن تنحني جاثية على ركبتيها. أزاح المنديل الأسود عن القفص فكشف عن حمامة رمادية لها عنق أبيض متواجدة بداخله، بدت هذه الأخيرة مرتعبة وهي تنظر لسلمى وتلتفت برأسها كأنها تستطلع المكان. أخرجها حسينة ثم سحب بيده الأخرى قضيبًا صغيرًا حادًّا من جيب سرواله، وأمر سلمى بأن تعطيه الصورة والورقة التي تحتوي على الأسماء، وهي الأغراض التي أعطتها إياها صديقتها جميلة.

بدت مترددة ومتفاجئة، انحنى حسينة قليلًا وقال:

- اسمعي جيدًا ما سأقوله لك.. سأعطيك الحمامة والقضيب.. تمسكين الحمامة بيدك اليسرى.. والقضيب بيدك اليمنى.. عندما أشير لك ستقومين بوخز الحمامة بثلاث ضربات متتالية في صدرها بالقضيب.. هل فهمت؟ هاتِ الصورة والاسم.

مَدَّ لها الحمامة والقضيب الحاد وأخذ منها الصورة والورقة التي تحتوي على الاسم، ثم قال:

- هل أنتِ مستعدة؟.

ردت دون محاولة إخفاء هلعها ودهشتها لما ستقدم على فعله:

- أجل، أجل.

انتصب حسينة ورفع كلتا يديه كأنه سيستقبل رياح البحر، فصاح بصوت خشن وعميق:

– رحبال نيطايشاي، رحبال نيطايشاي.. لقد أتت هذه المرأة من مكان بعيد.. موافقة على جميع شروطكم.. رغبتها التقرب منكم.. ها هي هديتها لكم.. لتنعموا بطعم دمها.. فاجعلوا لها يا من لكم قدرة إحراق القلوب وبلبلة العقول – نظر للورقة في يده – قلب السيد أحمد نوالي بن عبد الجليل وأمه نجاة متولي.. اجعلوا قلب هذا السيد يتألم كما ستتألم هذه الحمامة.. أشعلوا نارًا بقلبه حتى يهيم بالسيدة سامية الزواتني ابنة إسماعيل وأمها زينب منال، ولا يهنأ من ألم الحب الشبيه بألم الوخز حتى يجتمع بها.

ثم نظر فجأة لسلمى وقال مباشرة بعد إنهاء ندائه:

– هيا اضربي..

لم تدرِ سلمى ما تفعله في خضم هذا الجو الغريب، إلا أن تطعن الحمامة ثلاث طعنات بكل قوتها ودون أدنى تفكير أو تردد.

انتزع حسينة الحمامة من يدها ومرر الصورة على صدرها المطعون، ثم ألقى بالحمامة في مياه البحر.

أمسك بالصورة الملطخة بالدم ومزقها هي والورقة التي كُتبت فيها الأسماء، ثم نثرهما فوق رأس سلمى.

انتظر لحظات وقال:

- هيا لنعد أدراجنا.

ظلت مشدوهة، وكأن سلمى أخرى لا تعرفها هي التي توجد هنا، هي التي طعنت تلك الحمامة المسكينة بوحشية.

كرر حسينة:

- هيا لن نظل هنا طوال اليوم ولا يجب أن تغسلي يديك حتى تصلي إلى بيتك، سأعطيك قنينة ماء خاصة للغسل.

***

- العاشرة مساءً، ما الذي رغبت به تلك المرأة التي أتت عندك في الصباح؟

سأل غوخ حسينة الجالس بجانبه والذي سرح بنظره في النار المشتعلة أمامهما بغرض التدفئة.

كانا لا يبعدان كثيرًا عن البيت الشاطئي الذي يسكنه غوخ، وكان صوت الأمواج المتحطمة هو الشيء المسموع لدى حسينة.

إلى أن اخترق أذنه صوت مألوف:

- حسينة أين رحلت؟!

التفت نحو غوخ:

- ماذا؟!

- سألتك.. ما الذي كانت ترغب به تلك السيدة التي أتت في الصباح؟

- آنسة، ليست سيدة بعد.. كما تعلم ما إن تتجاوز الأنثى الثلاثين سنة حتى يبدأ "رهاب العزوبية" بتملّكها.. لكن هذه ورغم أنها لم تبلغ الثلاثين بعد على ما أظنُّ.. فإنها لا ترغب بتضييع خطيب تقدّم لخطبتها.. بالنسبة لها فالأمر فرصة تستحق الاستعانة بالقوى الخارقة.

رفع غوخ كلا حاجبيه مستغربًا، وعاد الصمت ليسود الشاطئ سوى من صوت الأمواج وطقطقة الحطب الذي يحترق.

***

في تلك الأثناء كانت كل من جيمي وتوما تشاهدان باللابتوب الشريط المصور لأحداث سلمى مع المشعوذ حسينة، حيث قامت هذه الأخيرة بدس كاميرا صغيرة بملابسها بناء على تعليمات جيمي.

لم يمر على وجود توما هنا أكثر من أسبوع غير أن الأمور تتزايد إثارتها أكثر مما توقعت، لم تفهم البارحة ما كانت تتفق عليه جيمي مع إحدى معارفها، غير أن جيمي التي أحست ساعتها بحيرة توما همست لها بأنها ستتفاجأ بما تحضّره لها، ومن الأفضل ألّا تستبق الأحداث.

سألت توما:

- كيف جعلتها ترضخ لطلبك.

- لا شيء، فقط ضاعفت المبلغ الذي رفضته بالبداية، وسمحت لها أن تحتفظ بسيارتي طوال اليوم.

انفجرت توما بالضحك عندما رأت صورة أسامة بالشريط.

- أنت مجنونة.

قالت وهي تهوي بيدها على كتف جيمي.

ردت الأخيرة مازحة:

- فقط للتأكد من حقيقة ما يقوم به هذا المغفل، متشوقة لرؤية أسامة هائمًا بسلمى.

- مزاحك سخيف.

علقّت توما على كلامها.

رحبال نيطايشاي.. فكرت جيمي بينها وبين نفسها، سبق أن أخبرها جدّها أيام طفولتها أن السحرة يعتمدون قلب الكلام لإيهام مستمعيهم أنهم يتحدثون لغة غريبة، فتحولّت الجملة مباشرة في تأمل جيمي ل-"يا شياطين البحر، يا شياطين البحر.. افتتح نداءه بهذه الجملة السخيفة!

- أيظنُّ نفسه بلوتو سيّد الجحيم!

علّقت باستغراب بينها وبين نفسها.

(9)

– أما زلتِ تفكرين بأحداث قبل أمس؟.

أخرجت جيمي صديقتها من سهوها البادي، وهما تتجولان بالمول التجاري الكبير بالدار البيضاء.

ردّت توما بأنّها لا تكف تتذكر حلمها حول القمر وكلمات الكاهن، كأنه استحواذ.

قالت جيمي بتهكّم:

– يخصّب الله العقل، فيدرك كل الأفكار، والعقل يدرك الكفرة، الإرهابيين،والمصائب..! لماذا بالضبط كلمات هرمس الغامضة؟ كلمات ويليام بليك كانت لتليق بحلمك أكثر.

وبدأت تتحدث بشكل مسرحي، وتحرك يديها كأنها تؤدي دورًا هزليًا بإحدى مسرحيات موليير وهي تقول:

– تهوي الشمس بتجاه الغرب، وتلمع نجمة المساء، الطيور بأعشاشها تلزم الصمت، وأنا يلزمني أن أجد مخبئي، القمر، مثل وردة، يُعرِّش بأعلى المساء، في ابتهاجٍ صامت، يجلس ويبتسم بوجه الليل.

– كفى.

صاحت توما وهي تكافح لكتم ضحكتها.

– الناس ينظرون إلينا!

– بالتأكيد لأني جميلة ك-"أغنيات البراءة" ل-بليك..

ردت جيمي.

– بل لأنك بلهاء!

ظلتا طوال اليوم تتجولان بمدينة الدار البيضاء، وبالمساء التقتا بسلمى عند محطة القطار بالمحمدية، حيث اتفقن على اللقاء عند عودهما.

استردت جيمي السيارة، وعادتا إلى البيت.

تملؤهما الحماس أمام اللابتوب الذي يشاركهما السرير، رأت كل من توما وجيمي، بالشاطئ، مجموعة من الناس ترقص بشكل هستيري، على موسيقى فرقة "كناوة" والتي كان أعضاؤها يرتدون ملابس حمراء وسوداء، ونظرًا لقرب الجميع من مياه الشاطئ، بدأت

بعض النسوة تركضن وتلقين بأنفسهن في مياه البحر، فتتخبط أجسادهن بأمواجه، أما أخريات ومعهن رجال فقد سقطوا بأماكنهم يتمرغون في الرمل وصراخهم الغريب يختلط بصوت الموسيقى الذي يملأ الأجواء.

- هل سبق ووقعت حادثة غرق؟

سألت سلمى غوخ الذي رافقها هذه المرة بدل حسنية، والذي بدا أنه على عكسها يألف هذه الأجواء، ويجدها أمرًا عاديًّا؛ وقبل أن يجيب أشار بيده لبعض الأشخاص الموجودين بالشاطئ، بعضهم يقف في الماء الذي يصل مستواه لركبهم:

- هل ترين أولئك الأشخاص؟إنهم مكلفون بمراقبة النساء اللواتي تسبحن، والتّدخل للإنقاذ إن بدا أن إحداهن ستغرق أو أنها تفقد السيطرة على نفسها.

كان الاندهاش باديًا على وجه سلمى وهي ساكنة كالتمثال تنظر لموقف لربما لم يسبق لها أن عاينت مثله. قالت وكأنها تحادث نفسها دون أن تلتفت لتنظر جهة غوخ الذي ظلّ واقفًا بجانبها:

- لقد ذهبت مرة مع خالتي لزيارة ضريح لم أعد أتذكر اسمه بمدينة مراكش.. كانت إحدى صديقات خالتي تداوم على زيارته بصفة مستمرة خلال إجازتها السنوية.. لذلك دعت خالتي لتذهب معها، فقط لتغيير الجو والاستمتاع، وبما أنني كنتُ مُقرَّبة كثيرًا من

خالتي فقد أخذتني معها وساعتها لم أكن قد بلغت سن ال 18 بعد، كنت في ال 17.. الغريب في الأمر هو عندما دخلنا للضريح.. كان في البهو بعض الأشخاص الذين يرقصون على موسيقى أظن أنها كانت فرقة "عيساوة"، وما إن اقتربنا منهم حتى اندمجت صديقة خالتي بينهم لترقص أو تجذب كما يقال.. أمّا أنا وخالتي فظللنا واقفتين نشاهد، مثلنا مثل بعض الحضور الموجودين هناك.. لكن فجأة بدأت خالتي تحرك رأسها كأنها تساير الإيقاع، ولم يمر وقت قصير حتى وجدتها تندفع بالقرب من صديقتها، وهي ترقص بشكل شبيه برقص المشاركين في ذلك الجو.. بدأت ترقص بشكل غريب مستنفدة كل قوّتها إلى أن وقعت مُغمًى عليها، وحينما سألتها بعدما استفاقت عن السبب الذي دفعها للقيام بذلك.. أخبرتني أنها لم تدرك ما كانت تفعله.. إنما أحست بأن قوة ما كانت تدفعها للرقص، ولم تعد تستطيع التحكم في جسدها، وكان التفسير الوحيد طبعًا هو أن الجن تلبَّس جسدها ودفعها للمشاركة في الجو، حسب ما قالته صديقتها، وتلك هي طريقته في الترحيب بالناس الخاصين ممن يأتون لزيارة المكان.. بمعنى أن الجن قد أحبّها وارتاح لوجودها لذلك دعاها للمشاركة!".

لم يكن غوخ هو مَن تحدَّث، بل كان شخصًا آخر صوته أكثر عُمقًا، شعرت به يقف خلفها، ولم تشعر به حينما اقترب، التفت لتجد رجلًا حليق الرأس..

ليس الغريب فيه أن عمره يتجاوز الخمسين، بل الغريب أنه رجل تجاوز الخمسين ويضع قرطًا فضيًّا فوق حاجبه، كمراهق مهووس بفرق الروك، لاحظت سلمى قرطًا على شكل نجمة سداسية متبثة فوق حاجبه الأيسر، والذي قال:

– تفسير صديقة خالتك، تفسير سخيف! يجب أن تعرفي أن أماكن الجذبة.. تستعمل موسيقى خاصة ك–عيساوة وكناوة، وهي موسيقى روحية ذات إيقاع عال.. لأنها تعود بجانب من أصولها لطقوس التواصل مع الأرواح، وبدون شعور، فالإيقاع الذي يستمر بالصعود حتى أقصاه..يدفع الناس خاصة منهم الذين يكتمون أمورهم ومشاكلهم، ولا يمارسون نشاطًا للتفريغ كالرقص أو الرياضة أو السفر وما سواه، للانقياد بسهولة في الطقس ما إن يسمعوا الإيقاع.. فيجدون أنفسهم مدفوعين لمسايرته بالحركات..ما دام الجو يبدو هستيريًّا ولا مجال للحياء فيه.. زيادة كما قالت خالتك إن إرادة أخرى خارجة عنهم هي ما يحركهم، ومن ثم ينغمسون في الأجواء، ويتم تفريغ الانفعال المشحون الذي تم كبته في الذات.. بطريقة تكمُن هنا في الرقص بشكل هستيري حد الإغماء..ما يؤكد الرغبة في فقدان السيطرة، والتخلص منها بطريقة مباشرة..السيطرة التي ظلّت مدة ضاغطة على صاحبها نتيجة خنقها لرغبات.. يتم التعبير عن الذات بأريحية، وفي حالة أخرى يعقب الرقص البكاء والصراخ..

وجميعها تعابير عن تفريغ مخزون انفعالي ظل حبيسًا مدةً طويلة..لذلك كثير من النساء تلج تلك الأجواء، وأيضًا الرجال الذين يشعرون بالحُكرة (الظلم) أو القهر..

وعندما يفقد الإنسان السيطرة على ذاته لأنه يستسلم للإيقاع أو الجو، والأمر شبيه بجلسات التنويم المغناطيسي، فطبيعي أن يشعر بأنه لم يكن واعيًا لما يفعله..تحدث حيلة ذهنية هنا بطمس الشخصية.. حتى يتسنى التفريغ عن الذات بكل أريحية".

قبل أن تقول شيئًا، أمسك الرجل بيدها، وجرها وهو يقول:

– تعالي.. ستفهمين ما قلته! فقط أنصتي جيدًا لكلمات الأغنية وإيقاعها، ستجدين نفسك مندمجة بالجو، وستشعرين بارتياح بعد ذلك.

شعرت سلمى بأنها قد فقدت فعلًا السيطرة على نفسها وهي تمشي مع هذا الرجل الذي يمسك بيدها ويقودها باتجاه الجذبة، وكأنها دمية غير قادرة على الكلام.

اااااااااه يا بابا اااااااه باباااا

ااااااه بابا حموداااااا الله بابا

وااااا شريفي ضيف الله، الله بابا

وضيف الله المالكني، ضيف الله

الله بابا

ضيف الله ياك باليني حمودا!

الله سيدي

وبينما هي تنصت محاولةً تمييز كلمات الأغنية، وجدت نفسها دون شعور تساير الإيقاع بحركة جسدها، وحولها الكثير من النساء يرقصن.

وبما أن الإيقاع يصعد، بدأت حركات جسدها تسايره دون أن تحاول كبح نفسها، فأحست وكأن عضلاتها تتمدد لتأخذ شكلًا آخر، وكأنها تتحوّل هيكليًّا حتى يأخذ جسمها شكلًا جديدًا تتمكن عبره من الدخول لعالم جديد؛ لم تعد ترغب بالتوقف بل بالاستمرار حتى عبور العالم الذي يعد بالنشوة التي بدأت سلمى تلمس طغيانها القادم وهو يجتاح جسدها الصغير، هذا الجسد الذي أدركت في هذه اللحظة أنه يمتلك طاقة وقوة لم تعهدها فيه من قبل، الآن وفقط صارت تشعر بأنها أنثى قوية ولا شيء قادر على إضعافها. أنثى كونية أبدية لا يهددها شيء ولا وجود لما قد يمنعها من فعل ما تريد والتصرف على حريتها.

على إثر ذلك أطلقت العنان لحركة جسدها، ولم تتوقف إلا وهي تقع، ليس من شدة التعب بل من الغبطة، سألت نفسها:

لما لم تشعر بمثل هذا الشعور من قبل؟

لماذا انتظرت حتى هذه اللحظة لتدرك بأننا كبشر نخفي بداخلنا قدرات هائلة؟ وأجسادنا تمتلك قوة وخصائصَ تمكننا من التغلب على كل ما من شأنه أن يعوقنا أو يخيفنا أو يهددنا؟

شعرت في لحظة بأنها تنهار، غير أنه انهيار مريح، فبدأت تبكي، غير أن الدموع التي خرجت من عينيها بدأت تنهال عليها كذلك من السماء، كأن الوجود بأكمله يبكي ببكائها، رفعت نظرها للسماء، لترى ذلك الرجل الحليق الرأس صاحب القرط، وهو يقذف الماء من فمه على جسدها كأنه تنين مائي، يحمل في يده إبريقًا يرفعه كل حين ليشرب منه.

وقبل أن تفقد وعيها، شعرت بأن أحدهم يحملها، ويبعدها عن أصوات "القراقب" وهي تصدح في الجو وكأنها تتنافس مع صوت "الهجهوج" *.

وفي الخلف ظل ذلك الرجل ينفث الماء على البقية التي ما زالت ترقص على أنغام:

حموداا واا الكناوي

حموداا الله باباا

حموداا يشرب ويداوي

حموداا الله باباا

حمودا ما لك اااسيدي؟

حمودا الله باباا

واا السالبني، الله باباا.. واا المعذبني، الله سيدي.

* القراقب والهجهوج: آلات موسيقية تعتمدهما فرق كناوة، فبالإضافة للطبل هناك القراقب (أشبه بملعقتين معدنيتين توضعان في اليد تصدران صوتًا إيقاعيًّا مع تحريك أصابع اليدين)، والهجهوج وهو أقرب بشكله للجيتار.

(10)

– هل تعلمين بأن حسنية مجرد مظهر!..

صرّحت سلمى لنورة الصحفية، وهما بمقهى يطل على حديقة المدن المُتَوْأَمة، قبل موعدها مع جميلة بمحطة القطار..

– ماذا تقصدين؟

– هناك شخص هو الذي يدير ذلك المشروع أو لا أعرف ماذا يمكن أن نطلق عليه..

– شعوذة.. تدخلّت نورة.

– المهم، من الظاهر أنه شخص ذكي كما لاحظتِ، وهو من يدير تلك الجماعة من الحمقى! هناك سبب يدفعه ليخفي نفسه عن الأنظار والأقاويل.

سعت نورة لسبق صحفي، بإجراء حوار مع المشعوذ حسينة الذي اتسعت شهرته مؤخرًا، بغية تقريب ممارساته وشخصيته من القراء، فبالرغم من شهرته إلا أنه يظل شخصية غامضة، لكن ما كان يجذب نورة لهذا الموضوع هو تغاضي السلطات عن ممارساته، باعتبارها فانتازيا ترفيهية تجلب السياح! حينما يتعلق الأمر بالمال والضرائب تتغير مسمّيات الأشياء، لكن حدس نورة كان يخبرها بأن ذلك الهراء ليس سوى غطاء لشيء أكبر.

كانت قد التقت بابنه سفيان أو السفينة كما يلقبونه على وزن اسم والده! قبل أن تتخذ الأمور مجرًى آخر..

فقبل أسبوع وبالمقهى المقابل لمحطة القطار، كان السفينة، وهو لم يبلغ العشرين بعد، يجلس منتظرًا أحدهم:

– آه إنها هي!.

رفع يده باتجاه شابة أنيقة دخلت المقهى توًّا، فاقتربت منه مبتسمة:

– أنت سفيان صحيح! شكرًا لك على حضورك..

جلست وتابعت:

– هل تأخرت؟

– لا لقد أتيتُ كذلك للتوِّ.

– إذن أنت من يدير صفحة حسينة بالفيسبوك.

– طبعًا، أنشأها قبل ثلاثة أيام.

– لقد كنت أتحين فرصة مقابلة السيد حسينة لإجراء حوار صحفي معه، لكن الأمر أصعب مما تخيلت، لكن عندما وجدت البارحة صفحته، وتلقيت ردًّا على رسالتي، سعدت جدًّا بذلك.

– والدي لا يهتم بالظهور في الصحف أو التلفزيون، لكني أرغب بأن ينتشر اسمه، ولِمَ لا.. ربما يتمكن يومًا ما من تقديم برنامج تلفزي عن السحر!

– وتصبح أنت مدير أعماله؟!، صبّرني يا ربّي!.

خاطبت نفسها.

– لِمَ لا!

واكتفى بالابتسام..

ظهر النادل ووضع فنجانًا من القهوة على الطاولة بالقرب من السفينة وقنينة ماء صغيرة، ثم التفت جهة نورة مبتسمًا لأخذ طلبها:

– عصير ليمون من فضلك..

فانصرف حاملًا صينيته الفارغة باتجاه الكونتوار.

– إذن كيف ستدبر لي لقاءً معه؟

سألت نورة.

وضع السفينة الملعقة فوق الصحن بعد الانتهاء من تحريك السكر والقهوة.

فأجاب:

سأطرح عليه الفكرة، وأنا متأكد بأنه سيقبل، لن أخبره بأنه حوار صحفي بل بأنه بحث حول الأسرار السحرية، سيرغب بأن يساعدك طبعًا لأجل البحث، فهو يحب هذه الأمور.

– لكن ماذا عن النشر؟ أنا أرغب بنشر الحوار بالمجلة.

– ستخبرينه بعد ذلك أن بحثك تم اختياره لِيُنشر بمجلة ما، وأنك بحاجة لذلك كي تجدي وظيفة، لن يغضب طبعًا.

– تبدو فكرة جيدة.

عاد النادل ووضع كأس الليمون.

– شكرًا..

– العفو، صحة وعافية.

تابع السفينة بعد انصراف النادل:

– والدي يعتبر الصحفيين مثل النسور التي تتغذى على الجثث، عندما تقع فضيحة أو كارثة يأتون ليتغذوا عليها مثلما تتغذى النسور على أجساد الحيوانات حينما تقع، زيادة على أنه يرى أن الصحفيين

أسوأ من ذلك! إذ إنهم يقتلون ليتغذوا على جثث قتلاهم، أي يقومون بخلق إشاعة ومن ثم يتغذون عليها، ودائمًا ما كان يردد ناعتًا الصحفيين بالكلاب التي تبدأ بالنباح كلما تحرَّك شيء.

– إنها لشوبنهاور.

– ماذا!

– المقولة لآرثر شوبنهاور "الصحفيون مثل الكلاب: يبدؤون في النباح كلما تحرك شيء".

مرّت لحظات صامتة ارتشف كل واحد منهما مشروبه بهدوء.

فجأة نظرت نورة لساعتها:

– العاشرة والنصف، يجب أن أذهب، هاتفني عندما تُدبِّر لي موعدًا مع حسينة، أنا جدُّ شاكرةٍ لك، إلى اللقاء الآن.

وقفت وحملت حقيبتها:

– لن تدفع شيء، المشروب على حسابي.

ثم مشت باتجاه النادل.

وظل السفينة مُثبِّتًا نظره على قوامها المثير وهو يتحرك في أثناء مشيها.

قال بينه وبين نفسه:

- آه لو أني أقرأ ما في عقلها لأعرف هل ستعجب بي أما أنها تحب شخصا آخر.

عاد السفينة إلى البيت وجلس يفكر ممسكًا بهاتفه..

- كم سيكون رائعًا لو أنني أستطيع إقناع والدي دون أن أتحدث، بأن أضع الفكرة في عقله، لكن هل هذا ممكن؟ لماذا لا أبحث عن الموضوع بالويب.

فتح صفحة غوغل، وكتب على صفحة البحث "إرسال فكرة عبر العقل"، ظهرت عناوين عدة مواقع تضمُّ مقالات عن العقل والدماغ والاتصالات، أحد العناوين كانت "الباراسيكولوجي أو علم الخوارق".. عنوان آخر "التخاطر أو التواصل عن بعد"..

لم يشأ السفينة الدخول لأي من هذه المواقع ما دامت العناوين تشير لمقالات بالمنتديات، وهو يعلم أن المنتديات مليئة بالأكاذيب والمعلومات المغلوطة، كما سبق ووضّح له ذلك صديقه عثمان.

لذا قام بنسخ كلمة "تخاطر" وأعاد كتابتها بخانة البحث أعلى الشاشة، ضغط على أول موقع ظهر: "تخاطر - ويكيبيديا الموسوعة الحرة". رغم أنه يجد موسوعة ويكيبيديا موسوعة غير موثوقة، فأحيانًا كان يجد فيها معلومات غير صحيحة مثلها مثل كتاب "المليون معلومة"، الذي أحضره عمّه وتركه لديه، إلا أنه الآن يحتاج لأي مصدر سريع للمعلومات حول الموضوع.

التخاطر (بالإنجليزية: Telepathy) هو مصطلح صاغه فريدرك مايرز، ويُشير إلى المقدرة على التواصل ونقل المعلومات من عقل إنسان لآخر.. كلمة (Telepathy) هي من أصل يوناني لكلمة من مقطعين بمعنى التأثير عن بعد، ويعدّ التخاطر أحد مظاهر الحاسة السادسة أو الإدراك فوق الحسي، وللحاسة السادسة مظاهر أخرى مثل الاستبصار، والمعرفة المسبقة...

توقف السفينة عن القراءة، وفكر لحظة "يعني أنه إذا ثبت أن هذا حقيقي، واستطاع الجميع تعلّمه، فهل سنلقي بعدها بأجهزة التلفون والكمبيوترات؟ لأنه لن يعود لها أي دور! يجب أن أسأل عمّي لأنه ضليع بهذه الأمور، لكن أين هو يا ترى الآن؟

فجأة سمع صوت طرق على الباب.

– أمعقول أن يكون هو؟ هل تلقى إشارة من عقلي؟

ركض نحو الباب فإذا ب–"مها" أخته الصغيرة."

– آه، لقد حضرت من المدرسة، إنها الحادية عشرة، تبًّا لي! لقد نسيت أنه يحضر غالبًا مع والدي، ووالدي يملك مفتاحًا ولا يدقُّ على الباب.

– هل ستظل واقفًا هكذا أمام الباب طوال اليوم؟ هيا ابتعد أنا أشعرُ بالجوع.

دفعته من بطنه ودخلت، وضعت محفظتها جانبًا، وأسرعت باتجاه المطبخ.

ظل السفينة واقفًا لحظاتٍ لربما يظهر والده، ولكن دون جدوى.

أغلق الباب، وعاد للداخل.

- لكن من هو فريدرك مايرز هذا؟

لم يجد السفينة أي معلومات حوله، سوى أنه من المؤسسين لعلم الباراسيكولوجي. جلست بجانبه مها، فوضعت كأسًا كبيرة من عصير البرتقال، وقطعة من فطيرة تفاح، ثم أخذت الريموت كنترول من فوق الطاولة وضغطت على الرقم 8، فظهرت قناة MBC3، وضاعفت من حجم الصوت.

قبل أن تضع الأم وجبة الغذاء، دخل حسنية وشقيقه، فإذا بالسفينة يظهر أمامهما فجأة مُلقيًا بالسؤال على والده:

- مرحبًا، هل تعرف من فريدرك مايرز؟.

- هل أنت مخمور؟!

رد حسينة باستغراب.

لم يكن السفينة ينتظر إجابة من والده، فهو يعلم أنه جاهل، حتى حينما يتحدث حول أمور ثقافية فإنه لا يردد سوى ما سمعه من شقيقه، دون فهم! بذلك فإن السفينة كان يدرك أنه سيتلقى الإجابة

من عمّه الذي لا يقاوم تدخّله بمواقف كهذه مستعرضًا سعة اضطلاعه ومتباهيًا بثقافته. وفعلًا، فسرعان ما رد عمّه:

- إنه شاعر إنجليزي، كان مثلي الجنس بفترة شبابه لكن ذلك لم يمنعه من الارتباط بالنساء، حتى أن لديه أطفالًا، إنه شخصية مشوشة، قام بتأسيس مركز للأبحاث الباراسيكولوجية، إنهم جماعة من غريبي الأطوار سعوا لنشر ديانة تكنولوجية، وإثبات معجزاتها بالمقالات والكتب وتفسير بعض الظواهر السيكولوجية باعتبارهم أنبياء هذه الديانة. لا تشغل نفسك بمثل هذا الهراء..

كما يقول نيل ديغراس تايسون:

"أن تكون مُلمًّا بالعلوم تعني أن تُمكّن نفسك من معرفة ما إن كان من يُحدثك مليئًا بالهراء". هل تعرفه؟

- لا! من؟

- ألا تشاهد قناة ناشيونال جيوغرافيك؟

لم يفهم السفينة ما يقصده عمه، الذي طرح سؤاله بصيغه لا تخلو من السخرية وتركه ليلحق شقيقه مداعبًا بيده رأسه الحليق.

- جماعة من غريبي الأطوار! إذن ماذا عنكم؟ ماذا يمكن أن تعتبروا أنفسكم؟ فرسان الهيكل؟!.

حدّث السفينة نفسه.

بعد ذلك بيومين، التقت نورة بسلمى بغرفة السونا بالحمّام العام، وقد سبق أن كانتا صديقتين سنوات دراستهما بالثانوية.

اتضح من حديثهما أن الاهتمام نفسه يشغلهما، فحين أخبرت نورة سلمى بأنها تهدف عمليًّا لمقابلة المشعوذ المعروف، ردّت هذه الأخيرة بأن إحدى صديقاتها مهتمة بتاريخ الفن طلبت منها تصوير وثائقي حوله..فما كان من الصديقتين إلا أن اتفقتا، على عرض الشريط على نورة قبل أخذه لجميلة، بما أن نورة من جهتها عبّرت عن شكرها بإهداء صديقتها قسيمة شراء لأحد متاجر التجميل المعروفة. هكذا، وعبر سلمى، تتمكن نورة من اقتحام عالم حسنية دون أن تتحرك من مكانها.

لكن ما رأته نورة اليوم، فاق كل توقعاتها، فبعد أن استأذنت منها سلمى لتعيد السيارة لصديقتها، أعادت مشاهدة الحوار الذي حذفاه من الكاميرا، فبالأخير لن يفيد بشيء لصاحبة الوثائقي، لكنه سيفيد كثيرًا نورة.

فبعد أن أُغمي على سلمى، أو بالأحرى تظاهرت بالإغماء! حملها غوخ ليبعدها عن زحام الجذبة، حتى لا تتعرض للركل من إحداهن.

وضع جسدها بالقرب من الغابة، بعيدًا عن ضجيج الرقص، وجلس متكئًا على شجرة بجانبها. تظاهرت سلمى بالاستفاقة، فبادر غوخ بسؤالها:

- كيف تشعرين الآن؟

- أفضل بكثير.. أشعر بالارتياح.

- هل لمست أي تأثير فيما يخص غرضك؟

- تقصد؟..

مبدية عدم فهمها لما يُلمّح له.

- ذلك اليوم، أعني مسألة الحمامة.. هل لامست أي تأثير بعد ذلك؟ أقصد فيما يخص مطلبك؟

- آه فهمت قصدك، لم يحدث شيء يلفت الانتباه بعد.

- بهذه الحالة، هناك عمل له تأثير أكبر وأسرع، إن كان لديك اهتمام فبإمكاني مساعدتك.

- بروّية حتى أفهم.. إن كان بإمكانك مساعدتي، كما تشير، بعملك الفعّال كما تؤكد، فلما لم يعرضه على حسينة؟ لماذا اختار طريقة، كما أفهم من قولك، أقل تأثيرا من طريقتك؟

- لأنه حسنية متزوّج..

قالها بشكل حازم.

ما فهمَتُه نورة بعد ذلك، وهي تعيد مشاهدة الشريط، هو أن غوخ، بما أنه غير متزوج كما صرّح، فإن طريقته الفعّالة التي يقترحها

على سلمى دون خجل، هي عملية "فكّ الفرج": ما معناه أن الفرج يلزمه تحرير رمزي حتى يتسنّى لصاحبته الزواج! ودون ذلك يظل مقفولًا بوجه الرجال أو بتعبير أوضح تظل عانسًا. وتتمثل العملية بأن يقوم المشعوذ هنا، وهو غوخ في هذه الحالة، بوشم قضيبه بحروف ورسوم سحرية بماء القطران، ثم يقوم بعدها بإيلاجه بفرج الزبونة؛ وفي حالة كانت عذراء، أو خشيت فقدان بكارتها، فإن فتحة الشرج رمزيًّا تعوّض الفرج.

ما يعني بالأخير أن يمارس المشعوذ هنا الجنس على زبونته، من فرجها أو من دبرها، ليتسنى لها بعد ذلك الوقوع في الحب أو الزواج.. طالما أن الرسوم والحروف على القضيب ستنمحي بفرجها أو دبرها خلال الإيلاج، وتتحرر بذلك من "نحس العنوسة" وسوء حظ النصيب.

***

(11)

انتشر الفيديو الذي أطلقته مجلة "روتين" الأسبوعية بصفحتها الفيسبوكية، كالنار بالهشيم؛ يتضمن فضيحة عن المشعوذين بالمدينة، مع ذكر أنه أرسل للمجلة من طرف مجهول. وبعد مرور 24 ساعة على نشر الفيديو، داهمت الشرطة البيت الشاطئي الذي يسكنه غوخ – تجنبًا لتقريع الجمعيات النسائية والمنظمات الحقوقية – فتم القبض على كل من غوخ وحسينة وأخيه بوشعيب حليق الرأس، هذا الأخير الذي كان مدرّسًا للغة العربية بإحدى الثانويات، قبل أن يتخلى عن عمله بعد سجنه لتهمة المتجارة بالممنوعات.

وقد أسفرت المداهمة على كشف أن تلك الجلبة لم تكن سوى غطاء لتجارتهم لمخدر الشيرا، الذي كان مخزّنًا بالبيت الشاطئي الذي يحرسه غوخ. إثر ذلك أصدرت المحكمة قرارًا بوقف كل الممارسات الشبيهة بالأنشطة التي كانت تتخفى بها العصابة.

جاء في التقرير الذي نشرته المجلة حول تلك الوقائع – والتي فاقت مبيعاتها لهذا العدد مبيعات الأعداد السابقة أضعافًا – أن حسن مزيان الملقّب بحسينة، أخ لبوشعيب مزيان، وكلاهما أبناء عم لسعيد مزيان المعروف بغوغ، وأخوان كذلك لسميرة مزيان زوجة مسؤول سياسي معروف، والتي قطعت علاقتها بعائلتها منذ مدة طويلة. كان والدهم فقيهًا معروفًا بتلك المنطقة ومثيرًا للريبة بالوقت نفسه، فاستغل بوشعيب صورة وأنشطة والده بعد وفاته، لتغطية مشروعه الإجرامي؛ أما غوغ، فقد التحق بهما بعدما كان يشتغل بمراكش، وذو دراية بطقوس الشعوذة، وتطرقت المجلة بالتفصيل لأنشطة الشعوذة التي كانوا يقيمونها، ولمهام المشتغلين والمساعدين وعلاقتهم بالعصابة.

بعد ذلك بشهور، أصدرت توماسا روايتها الأولى تحت عنوان "إغواء القمر" – تحمل إهداءً لصديقتها جيمي.

وسرعان ما أحدثت الرواية جدلًا واسعًا بالأوساط الإيطالية.

تطرقت الرواية لساحر مغربي، يستغل حادثة اختفاء والده – شيخ متصوف – بظروف غامضة، لاستقطاب مزيد من الأتباع بعد ترويج فكرة أن والده رُفع للسماء كقديس.

وهو من ثم وريث القداسة، وانطلاقًا من هناك سيسعى لإقامة مجتمع شبه مغلق، وإقامة طقوس خاصة تخضع لدستور روحي من تأليفه.

وتنقلب الأحداث بعد انتحار أحد مساعديه الذي كان مصابا بالفصام، الأمر الذي سيجر محققًا ذكيًّا لإماطة اللِّثام عن عدة جرائم اقترفها ذلك الساحر، جرائم تفصح عن هوس مرضي بالرموز والأسرار الدينية.. الأمر الذي سيجعله يخضع لفحوصات طبية تؤكد محاكمته باعتباره مجرمًا مضطربًا عقليًّا.

كانت جيمي تندهش كل مرة وهي تقرأ اقتباسات منشورة بموقع إنستاغرام تحمل صورة صديقتها "توماسا كابوتو"، فهذا الصباح بالذات رأت اقتباسين.

الأول..

عندما يقلب الناس اسم أحدهم، فإن ذلك من أجل أن يميزوه، هناك الكثير من عمر لكن عميرة هو ما يجعل أحد أولئك ال-"عمر" مختلفًا.

نحن نلقّب مَن نحب ومَن نكرهُ لأننا نراهم مختلفين عمن سواهم، وبذلك نميزهم عن الناس العاديين.

والثاني..

وضع قبلة على أصابع يدها وقبلة أخرى على فمها.

"القبلة لغة الحب، فنحن لا نُقبِّل من نكره"..

ذلك ما جال بعقله في أثناء تقبيله لها. حتى أنها كانت تضع صورة لاقتباس من الرواية، بصفحة حسابها الفيسبوكي.. منذ القِدم وجد الناس طريقة لمعالجة ما يؤرقهم أو يشغلهم، أكان إحساسًا بالذنب أو سِرًّا.

هناك من يلجأ للمناجاة والبوح للآلهة، هناك من يصلي ويبوح لربه، هناك مَن يبوح لصديقه، هناك مَن يبوح للكاهن أو للمحلل النفسي، وهناك آخرون يفضلون البوح عبر الأدب والكتابة، ككتابة المذكرات، إنها أساليب في التعبير مختلفة، يجد كل شخص فيها طريقة للبوح والتخلص مما يُثقله، وكأنه يلقي به على شخص آخر حتى يتخفف منه.

***

(12)

روما، إيطاليا، 2016 ميلادية.

ذهبَت بعض الصحف إلى أن رواية إغواء القمر، إجابة ذكية لروايتك سيمون وبيرو، ماذا يمكن أن تقول عن ذلك مع العلم أن توماسا كابوتو كانت إحدى طالباتك؟

طرح المُقدّم التلفزيوني السؤال على ضيفه الأستاذ والروائي ألبرتو غولينو خلال مقابلة تلفزيونية، الذي أجاب:

إنها تلميحات استفزازية، نحن لسنا باليونان القديمة حيث يتبارى الكتّاب المسرحيون، حيث قيمة النشاط تخضع لمعايير تنافسية، الأدب فن، والفن لا يخضع لمعايير الملاكمة! يتعارك الملاكمان، فيصفق الجمهور للفائز، يكتب هنينغ مانكل رواية بالسويد، وتكتب مارثيلا

سيرانو رواية بشيلي،تأتي أنت وتقرأ "قتلة دون وجوه" هذا الأسبوع، وتقرأ الأسبوع التالي "عشر نساء"، وها أنت تستمتع لنصف شهر أو أكثرن الأمر يتعلق بمكتبة، وليس بكولسيوم أو أغورًا، الروائي يتنفّس ولا يتنافس..

– من منظوركم، ألا تحمل الجائزة الأدبية دلالة تنافسية؟

غولينو:

– ممكن، حسب معايير محددة.. تخضع الرواية المتسابِقة لشروط المسابقة، دولة اشتراكية ستقدّر الرواية التي تمجّد أيديولوجيتها، وتنفي الرواية المعادية لأيديولوجيتها باعتبارها دون المستوى الأدبي، يمكن تعميم المثال، حسب مقتضيات العُرف السياسي لكل إدارة، هل يُمكن إخضاع دوستويفسكي لشروط مسابقة؟ هراء! الأمر يتعلق بالتأثير، وليس مطابقة المعايير.

– هناك مأخذ يتعلق بأن كابوتو أبرزت أكثر وبشكل أوضح ما تطرقتم له أنتم براويتكم سيمون وبيرو، كيف ترون ذلك؟

غولينو:

– سيمون وبيرو، هي بالأصل قصة تعود للتراث اليوناني، تبنّتها الحضارة الرومانية إشارة للعطاء،إذا فهمنا رمزية إرضاع بيرو لسيمون.

القصص التاريخية، خاصة تلك التي تملك بُعدًا روحيًا أو عُمقًا إنسانيًّا، تلهم الفنانين، بذلك، فرواية سيمون تركز على البعد الفني تاريخيًّا، بالنسبة لكابوتو، فروايتها إغواء القمر تساير البُعد الروحي، من خلال طوافها حول بُنى الرموز.

– هل فعلًا اعتمدتم في روايتكم، على مخطوط اقتنيتموه بالمزاد؟

غولينو:

– بل اعتمدت على التاريخ.

بعد برهة صمت، ابتسم غولينو وهو يقول بصيغة تساؤلية:

– إيضاح أكثر؟

– نود ذلك طبعًا، والمشاهدون كذلك..

ردّ المقدّم مبتسمًا هو كذلك.

غولينو:

– لن أتحدث عن الرواية، فهي قد كُتِبت.. غير أني سأتحدث عمَّا يشغل اهتمامي بشكل عام، لقد كانت الأم المُرضعة هي أول التماثيل التي جسد الإنسان بها الآلهة، فأقدم تمثال معروف هو تمثال يُعرف باسم فينوس ولندورف، يعود للعصر الحجري القديم..

تشير التقديرات أنه نحته تم بين 24،000–22،000 قبل الميلاد.

صوّر ضخامة خصر ورد في الأنثى كإشارة للأم المنجبة، وضخامة الثديين كإشارة لحليب الابن، وهو الشكل الذي يميل للأنثى الأم، أكثر منه للأنثى الشابة أو الفاتنة.

نرى هذه المنحوتة بشكل آخر بعدها، وهي تمسك بثدييها، مثلما يمكن رؤية تمثال إيزيس وهي تسمك بثديها وتقدمه لابنها، بالنسبة لإيزيس سيتضّح اندماج البقرة والمرأة، دون حاجة للاسترسال، ربَط المشاهد الحضاري القديم، بين القمر والإلهة، بين الهلال وقرني البقرة كرمز للإلهة،بهذا أخذت صورة الأم الكبرى، صورة البقرة السماوية، فالإلهة "نوت" تصوّر بهيئة بقرة كاملة، والإلهة "نيت" كانت تصوّر برأس بقرة، وإيزيس نفسها كانت تصوّر بقرني بقرة، القرنان هنا إشارة للولادة وللحليب، طبعًا الأم، في رواية سيمون وبيرو انصبَّ اهتمامي على مرحلة الولادة المسيحية من منطلق رمزي، ومعلوم أن الابن روحيًّا أخذ عن أمه صفاتها القمرية والحيوانية، وهو الثور الوحشي، فندخل بالتالي لمنطقة الصليب.. رمز الصليب، انتقل عبر التاريخ من تموز السوري المقتول، إلى يسوع الفلسطيني المصلوب، الأول قُتل لأجل تخليص البشر من المجاعة، باكتشاف النظام الزراعي، والثاني صُلب لتخليص البشر من الخطيئة، التي عرضها الإله اليهودي (قصة التكوين).

وأصبح تموز الشجرة، هو المعمود الخشبي لدى المسيح، هيلانة أم الإمبراطور الروماني قسطنطين، وإثر رحلة لها للقدس بغرض الحج، ستعثر بمساعدة تاجر، على الصليب الخشبي الذي أُعدم عليه المسيح، واللصان اللذان حوكما معه، وحتى يتم تمييز الصليب الأصلي، الذي يخصُّ يسوع، عن المزيفين، اللذين يخصان اللصين، فإن هيلانة قامت باختبار، ليظهر الصليب الحقيقي بقدرته على شفاء الناس كاستمرار لمعجزة المسيح فيه، قامت بترك نصف العمود هناك

وهو المكان الذي سيحولّه الإمبراطور من معبد لڤينوس إلى كنيسة القيامة، والنصف الآخر أرسلته للإمبراطور نفسه، الصليب الذي وجدته "هيلانة" بالنسبة لرواية أخرى، تم بإصرار ابنها قسطنطين الذي حثّها على السفر وإيجاده، إثر رؤيته لشكل صليب كبير مشع في السماء، وذلك خلال فترة الحرب ضد مكسيميانوس ليتضّح له الأمر برؤية ليلية يأتيه فيها الملاك ويخبره:

"اعمل مثل العلامة التي رأيتها وبها تغلب أعداءك"، ليصبح الصليب رمز العلم الروماني فيما بعد، لكن ما يهمنا هنا هو غرابة الموقف، فالعمود الخشبي الذي صُلب عليه المسيح، مرّت عليه أكثر من 300 سنة، فحتى لو افترضنا أن الصُّلبان ظلت محفوظة طوال هذه المدة! فبحسب القانون التوراتي، فإن العمود يُعتبر نجسًا لأن الخاطئ مسّه؛ لذا يلزم حرق العمود أو إتلافه، فاليهودية تُعتبر أشهر ديانة

ترتكز على الطهارة والتّطهر من الدنس، فقد جاء بسفر التثنية 21:22 وَإِذَا كَانَ عَلَى إِنْسَانٍ خَطِيَّةٌ حَقُّه الْمَوْتُ، فَقُتِلَ وَعَلَّقْتَهُ عَلَى خَشَبَةٍ، 23 فَلاَ تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، بَلْ تَدْفِنُهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، لأَنَّ الْمُعَلَّقَ مَلْعُونٌ مِنَ اللهِ. فَلاَ تُنَجِّسْ أَرْضَكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا..

ولم يشر النص إلى دفنه مع الخشبة، بل تجاهلها كغرض مدنّس، إنما التركيز يكون على الجثث المدنّسة.

– أستاذ غولينو، أعمالكم ممنوعة بإسرائيل، هل يتعلّق ذلك بموقفكم من اليهودية؟

– ليس لدي موقف اتجاه أي ديانة..أنا مهتم بالأدبيات، والأدب التوراتي بالنسبة لي انعكاس وجودي لمرحلة تاريخية.

إن الخطيئة الأصلية بأكل الزوجين من الشجرة المحرمة "شجرة المعرفة" التي ستمكنهما من معرفة الخير والشر والممارسة الجنسية، لتُفرض على إثر ذلك قوانين صارمة تمثل نمط عيش الإنسان، كتعويض أو كعقاب لما اقترفه بحق الإله. إنما ترجع..

– تقصد الخطيئة المركزية؟

قاطعه المُقدّم.

غولينو:

– أجل، أجل، بالتأكيد..

– حتى يركزّ معنا المشاهدون الكرام.

غولينو:

– ترجع هذه الخطيئة المركزية للدوافع النفسية للمجتمع اليهودي، هذا المجتمع المضطَهد الذي طالما فشل في تأسيس دولة قوية وعاش طيلة تاريخه كأسير لدى العديد من الشعوب من بابل إلى مصر إلى روما مرورًا بالهولوكوست حتى صراعه الحالي مع الفلسطينين بتكوين مملكة وأرض خاصة به.

بهذا خلقت دوافعه النفسية دينًا خاصًّا قوميًّا وإلهًا شوفينيًّا لا يهمه أمر الآخرين، إنها رغبة الأسرى بتكوين دولة حاكمة للعالم للانتقام من الحكومات التي أسرتهم ليردوا لهم الضربة.

– لكن إسرائيل، لا تفكر بشن حرب على ألمانيا؟

غولينو:

– وكأنه يسهل ضرب الألمان! إسرائيل لا تزال في صراع تكوين الدولة، وإسقاطاتها الوجدانية مُنصبَّة الآن على الفلسطينيين، ما يهمني من كل هذا الجدل، هو أن اليهودية تاريخيًّا ليست إلا امتدادًا للبابلية التي عاش بها اليهود كأسرى لعدة سنين، فاحتفظوا بالقوانين والعقوبات مع قلب الطقوس، لهذا تُوبِّخ النصوص المقدسة أهل يهوذا

وإسرائيل لخدمتهم البعليم والعشتاروت ولعبادهم أصنام الوثنيين، باليهودية سيعود الرب لأصله الخفي مثل "آمون". إلهًا واحدًا يجمع الخير والشر في ذاته؛ ليتم تبرير الشر كوسيلة يختبر بها الإله من هو من بين البشر من يستحق دخول مملكته، وبما أنه إله حصري بين اليهود، فإن المخلّص بالأديان الوثنية، سيكشف عن نفسه عندهم بالمسيح المنتظر الذي سيخلصهم من اضطهاد باقي الشعوب لهم، ويبرهن أن الشعب اليهودي هو الأحق بملكوت الرب، ويضمن لهم وطنًا جغرافيًّا خاصًّا بهم. هذا الملك المخلّص المبعوث من عند الإله، سيتم رفضه لأنّه فتح اليهودية على باقي الأمم..

– هنا تقصد المسيح؟

تدخّل المقدّم التلفزيوني.

غولينو:

– نعم، وأعلنَ عن استعداده لتخليص باقي البشر حتى يتسنى لهم الانضمام مع اليهود لملكوت الرب؛ لذلك، فإنهم صلبوه لأنه أفسد المخطط الذي بنوه وتحملوا على إثره الكثير لتحقيقه، بذلك ستنفصل المسيحية كرؤية عن اليهودية، لتشكّل ديانة عالمية ستجتاح بقاع العالم كافة، ومنه فإن المسيحية التي تنفتح على باقي الثقافات، ستتشرب الرؤى الدينية السالفة وتحتضن الرموز الوثنية بما في ذلك استمرار الصليب والتثليث الإلهي المقدس، وعشتار بأوجهها الثلاثة: الولادة/

الحياة/ الموت، التي انتقلت كـ-ليليت المغوية باليهودية، ستنقل معها تثليثها باعتبارها الشيطان نفسه بالمسيحية، الذي سيصبح لديه ثلاثة أوجه هنا، لكنها تمثل "الموت" فقط.

شيطان بثلاثة أوجه، هو التمثل الذي اعتمده ساندرو بوتيتشيلي لتصوير الشيطان بقاع اللوحة التي جسد فيها ملحمة دانتي الشعرية عن الجحيم، كذلك فرا أنجيليكو، خلال تصويره لمشهد "يوم القيامة" اعتمد بلوحته (التي تحمل نفس الإسم) رسم الشيطان بثلاثة أفواه، إشارة لأوجه الموت، يقوم من خلالها الشيطان بالتهام الخطائين، مثلما كانت الآلهة الفرعونية تلتهم الممتحَن بالعالم السفلي إثر فشله بالمحاكمة.

***

(13)

أُعيد طرح السؤال نفسه (الموقف من اليهودية) لكن بصيغة مختلفة على توماسا كابوتو بالبرنامج التلفزيوني، الذي استضافها كذلك بعد شهر من استضافة الأستاذ غولينو.

كاوبوتو:

– لا يمكن أن تكتب عن الفن، دون المسّ بالدين.. فاللوحات بالأصل تحمل تصوّرات دينية، خذ عصر النهضة، تم تصوير العهدين بالكنائس، وتجسيد التمثُّلات الإغريقية، وهي بالعمق تمثُّلات دينية، الفن يعتمد على الأدب،فلو حذفنا كتب الفيدانتا الهندية وتراجيديات هوميروس، فما سيظل هو الأدب التوراتي، ما يشمل ذلك الأناجيل والرسائل..

بادر المقدّم متدخّلًا:

– كيف تنظر الكاتبة كابوتو لهذا الأدب؟ ما موقفها من التوراتية؟

كابوتو:

– كموقفي من أي ظاهرة أدبية، وهي فنية بالأساس، ما يعني موقف باحث أو دارس، الأدب التوراتي يتضمن أبعادًا سياسية، يكفي أن نشير أن إسرائيل كدولة مدنية لا تزال تعتمد على كتاباتها الروحية كدستور للدولة، من هذا المنطلق، يعكس الأدب هنا رؤية اجتماعية، ومن جهة مقابلة فلفهم سيكولوجية مجتمع ما، يلزم الاضطلاع على فنونه وأدبياته التي تعكس رغباته ومخاوفه. وبالنسبة لليهود نجد قصة يوسف بن يعقوب، تصف الحالة النفسية للشعب،فهو قد تم اضطهاده وبيعه بمصر.

هنا تمثيل لهجرة اليهود لمصر لتوفّر العمل وتوفير المأكل – فصار عبدًا..

– يوسف بن يعقوب؟

كابوتو:

– نعم، صار يوسف عبدًا ليس له شأن بتلك البلاد.

– فنلاحظ انعكاسًا لإحساس اليهود بالدونية في المجتمع الفرعوني، لكنه سيصير ملكًا، وزير الخزائن بالمملكة، وهنا تكشف نهاية القصة عن رغبة الشعب اليهودي باستعادة شأنهم وتأسيس مملكة حاكمة.

– كيف تفهم الكاتبة هذا الأدب، من خلال حقل اشتغالها؟

كابوتو:

– نجد الأدب اليهودي، عبارة عن مجموعة من القصص والأناشيد التي تم استلهامها من ثقافات أخرى، وإعادة إنتاجها بصيغة تخدم اليهود، فقصة النبي يوسف بن يعقوب بنيت على قصة فرعونية كانت متداولة آنذاك بمصر، وهي عن أخوين، أرادت زوجة أحدهما أن تراود الآخر، بغياب زوجها، لكنه رفض، وانتقامًا منه أخبرت أخاه، لدى عودته؛ أنه أراد اغتصابها.. فهرب الأخ البريء للنجاة من مقاتلة أخيه.

فتعديل القصة هنا، إنما يخدم الإسقاط النفسي عند الشعب اليهودي حتى يروا أنفسهم فيها، فإدراج السجن..

– إلقاء القبض على يوسف؟

تدخّل المقدّم موضّحًا.

كابوتو:

– أجل، إشارة للسجون التي تعرض لها اليهود عندما أُسروا لدى البابليين، وانتصاره – خروجه من السجن – بسبب طهارته وبراءته إنما إشارة لانتصار اليهود بعودتهم لأورشليم لإعادة تأسيس مملكة اليهود التي انقسمت ودمرها الآشوريون والبابليون وإعادة إنشاء

الهيكل، بعدما سيهزم الفرس مملكة بابل ويسمحون لليهود بالعودة، فطهارتهم إشارة لتمسكهم بمبادئهم – الشريعة اليهودية – كما تمسك "يوسف" بمبادئه، عندما راودته زوجة سيده، وعدم انغماسهم في الطقوس الوثنية الإباحية، ونرى أن تنصيب "يوسف" أميرًا نظرًا لحكمته إشارة كذلك لرغبة اليهود في إنجاح المملكة الحاكمة باسم الشريعة التوراتية، حكمة اليهود.

فسواء في القصة الرمزية أو الأحداث التي حصلت لأفراد المجتمع، نرى القاسم المشترك:

وهو الأمل المتمثل في أن الله لم يتخل عن شعبه، رغم نقضهم للعهد، والعهد كما جرى به العُرف هو أن يخلص اليهود العبادة ليهوه، وأن يقوم هو بالمقابل بحمايتهم وإكرامهم، فبالرغم من الخطايا التي ارتكبها اليهود في حق الرب فإنه لم يتخلّ عنهم، فكان الحكماء اليهود يفسرون الأزمات على أنها عقاب من الرب لانحراف بني إسرائيل وإغفالهم عن العهد.

فكما جاء العهد القديم، في سفر التثنية، والأصحاح الثامن والعشرين على ما أظنُّ، لا أتذكر النص بالضبط غير أنه مضمونه جاء بصيغة:

"إن سمعت سمعًا لصوت الرب إلهك.. مباركًا تكون بالمدينة، ومباركًا تكون بالحقل، لكن إذا لم تعمل بوصايا الرب وتبعت آلهة أخرى، سيجعلك منهزمًا أمام أعدائك، يصبُّ عليك لعنته ويبدد الشعب بالأرض".

- قصة الخروج!

كابوتو:

- فمنذ خروجهم من مصر- التي عانوا في ظلها الاضطهاد والدونية - مع موسى، بدأ الحلم بإعادة تأسيس مملكة خاصة باليهود تحت لواء الدستور الموسوي، غير أن اليهود سرعان ما خرقوا العهد عند عودهم لعبادة البقرة. إيزيس المصرية.

الأصحاح الثاني والثلاثون بسفر الخروج.

وذلك بصنعهم لعجل ذهبي، آبيس، وهو تمثال عجل يمثل الخصوبة.. فبذهاب موسى للجبل لينفرد بالله كمخاطب له سيمده بالوصايا والقوانين التي ستحكم بلاد إسرائيل، ونظرًا لضرورة وجود إله وعبادة، فإن اليهود عادوا تلقائيًا لديانة الفراعنة، الأمر الذي أغضب يهوه وموسى النبي طبعًا، تختلف الرؤى الدينية في المحرض لهذا الفعل، بين هارون شقيق موسى بالتوراة، وبين السامري الشخصية الغامضة برؤية الإسلام للقصة.

- سبق وصرح الأستاذ ألبرتو غولينو أن اليهودية اختزال لديانات سابقة، وهو ما يعكسه تاريخ الأعمال الفنية..

ما قول الكاتبة في ذلك؟

كابوتو:

من الواضح أن عبادة العجل في سفر الخروج، اختزال لعبادة إيزيس الفرعونية، وهناك رسامون تطرقوا لهذا المشهد.

ك-نيكولا بوسان وجيمس تيسو وأندريا دي ليون، بلوحات تحمل اسم "العجل الذهبي"، كذلك كلايف أبتون في لوحة "موسى يكسر الألواح"، الأكثر من ذلك، فإنه انطلاقًا من هذا الاختزال، وأقصد العجل الذهبي، وجد بنو إسرائيل تفسيرًا لسبب عذاباتهم وآلامهم، وكذلك الظروف التي يعيشونها.. الأسر بعيدًا عن مملكة الرب..كارثة وقوع مملكة إسرائيل (الشمالية) في قبضة الآشوريين، ووقوع مملكة يهوذا (الجنوبية) بقبضة البابليين..كل ذلك راجع لانتشار عبادة آتيس العجل صاحب اللعنة على اليهود، فيربعام حاكم المملكة الشمالية سيُدخل الأوثان لمعبد الرب، وهناك لوحة ل-جون هونوريه فراجونار تتطرّق لهذا المشهد وتصوّر عبادة العجل الذهبي داخل المعبد، والملك سليمان سيتزوج من الوثنيات مما سيؤدي لانتشار عبادة الأوثان بمملكته ودخولها للمعبد، حتى اللوحات التي

تطرّقت لهذا المشهد، تصوّر سليمان راكعًا أمام تمثال وحوله نساؤه الوثنيات.

على سبيل المثال لوحة سيباستيانو ريتشي ولوحة جون سيباستيان بوردان، ومن ثم كنتيجة لكل ذلك – طبعًا حسب التفسير التوراتي – سقوط مملكة اليهود نظرًا لخرقها العهد.

***

(14)

الدار البيضاء، المغرب، 2016 ميلادية.

.. خليني جنبك خليني، وسبني أحلم، سبني

ياريت زماني، ياريت زماني ما يصاحنيش

ما يصاحنيش..

كسر صوت سائق التاكسي أغنية أم كلثوم:

– حسينة، لقد وصلتَ للعنوان،البيت هناك.

وأشار بإصبعه للأمام.

لم يكن حسينة يرغب بالنزول، فكلما سمع صوتًا جميلًا كان يجد من الواجب أن ينتظر حتى ينتهي المغني.

– هل سرحت؟"

قال السائق.

أجابه حسينة كأنه عاد من كوكب آخر:

– ألا تخجل من التحدث والسِّت تغني؟

– لم أفهم!

– هذا ما قصدته، كم ثمن التوصيلة؟ 10 دراهم؟

– لا، لن أتقاضى منك يا حسينة أنت صديقي.

– أحسن، على الأقل تعوّض عما اقترفته بحق السِّت..

لم يفهم سائق التاكسي كلام حسينة ولم يشغل باله.

وقبل أن يغلق حسينة باب سيارة الأجرة، ألقى بقطعة الـ10 دراهم، وأغلق الباب، ثم ابتعد مسرعًا وهو يلوّح بيده.

ابتسم سائق التاكسي وانطلق:

– إنه فعلًا غريب الأطوار.

"أكثر من الفرح دا ما احلمش،

أكثر من اللي أنا فيه مطلبش،

بعد هنايا معاك.."

توقف حسينة عن الغناء بعدما فُتح باب الڤيلا الذي وقف أمامه منتظرا.

طلّت الخادمة:

– تفضل سيدي.

دخل حسينة.

كانت الحديقة خالية. .

– سيدتي، بالصالون.

قالت الخادمة، وانطلقت تسبقه الخطى.

بالصالون، لمحت الخادمة قادمة شبه منوّمة برفقة حسينة، فقفزت من مكانها دون تردد صارخة بوجهه:

– ما الذي جاء بك إلى بيتي أيها الحقير؟ هيا اخرج.

– متى ستكفين عن استقبالي بهذا الشكل السخيف؟

قالها دون أن يهتم لانفعالها،حتى أنه حرك شفتيه بابتسامة مستفزة.

– إن كان هناك شيء سخيف بهذا المكان، فهو أنت!

– هاها! إن كنت سخيفًا فلماذا اتصلتِ بي تطلبينني؟

– أنا أتصلك بك أيها المعتوه؟ اخرج من بيتي، هيا اخرررررج.

–من يحن إلى أيام البؤس غيرك؟سأتصل بالشرطة لتعيدك للسجن أيها المجرم.

حملت مزهرية وهرعت نحوه لتكسرها على رأسه.

استيقظت سميرة مزيان فجأة لتجد نفسها بغرفة نومها.

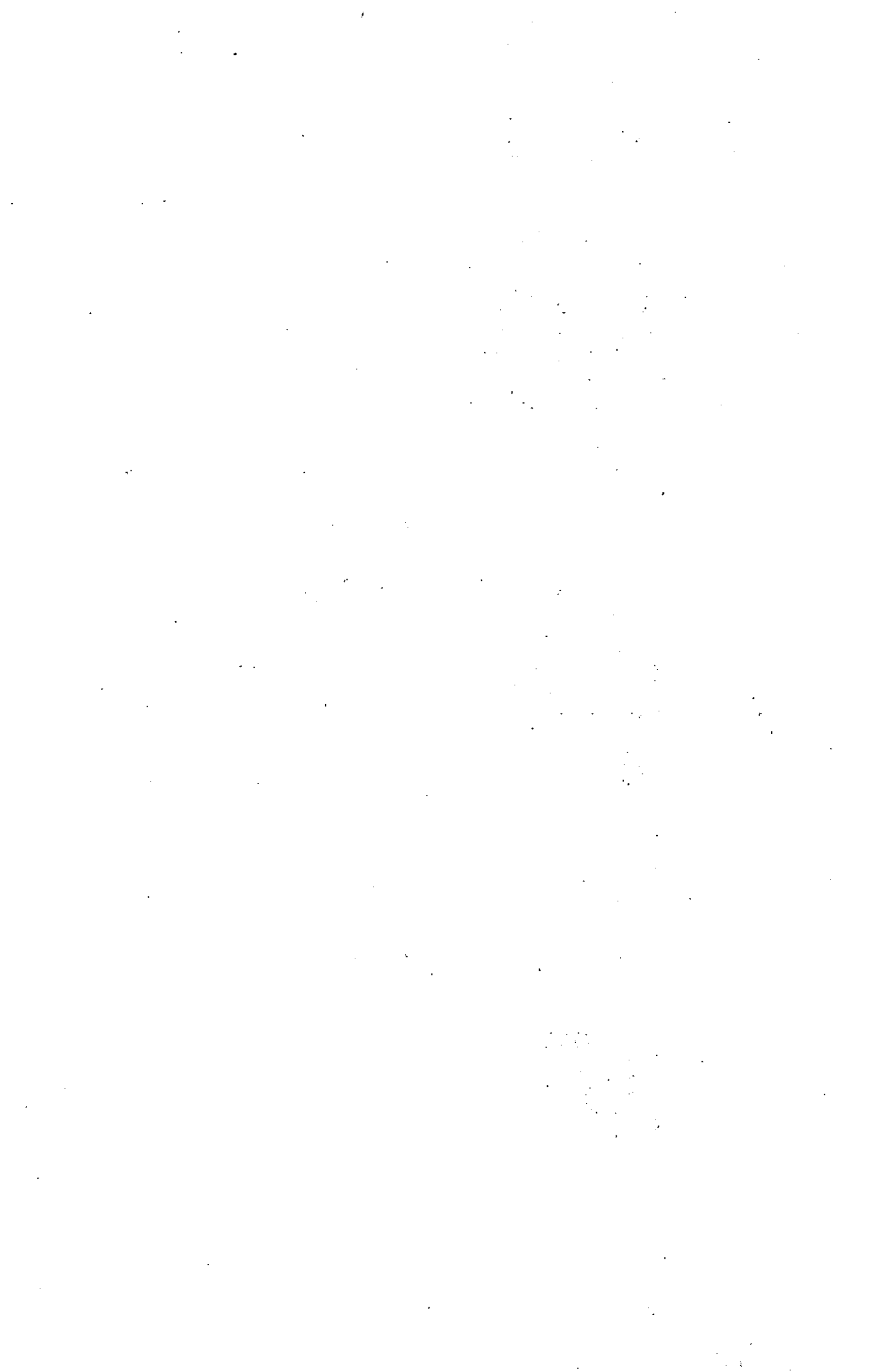
كان زوجها غائبًا ليومين في زيارة خاصة بالعمل، والساعة تشير إلى الثانية صباحًا.

بمثل هذا اليوم بالسنة الفارطة ألقي القبض على حسنية وجماعته.

–اللعنة عليك أيتها المسوخ.

قالت ذلك قبل أن تقوم للاطمئنان على أطفالها بغرف نومهم، عرجت بعدها على المطبخ لشرب القليل من الماء،ثم عادت لاستكمال نومها.

***







كانت توماسا تمسك بالرواية وتُقلّبها كأنها قطعة آثار نادرة، فعلّقت قائلة:

- قصة مثيرة.. رغم أن نهايتها بدت غريبة! أظنُّ أن المؤلف أراد أن يقول أن مغني الروك أند رول لا يموتون..

توقفت لحظةً ركّزت فيها على صورة الغلاف ثم تابعت:

- أعجبني المقطع الذي قال فيه أن الزوجين اللذين يقضيان مدة 10 أو 20 سنة معًا يصبح بإمكانهما قراءة أفكار بعضهما البعض.

جلس أسامة وهو يقول:

- تقصدين أنهما يفهمان بعضهما بعضًا دون أن يتحدثا.

- ليس هذا فقط بل من الممكن أن يشعر أحدهما بإحساس الآخر.. فعندما نكون مهتمين بشخص ما، فإننا نحفظ كل ما يتعلق به من عادات وتصرفات وردود أفعال.. ما يحزنه وكيف يبدو عندما يحزن، وما يفرحه وكيف يبدو عندما يفرح.. أو عندما يضجر.. أو يشعر بالإثارة.. أو الملل.. نحفظ كل ما يتعلق به مثلما نحفظ قصيدة أو أغنية نحبها.. فما إن نسمع مقطعًا من تلك الأغنية أو جملة من تلك القصيدة حتى نتعرّف إليها.. كذلك فما إن نرى ملامح هذا الشخص حتى ندرك إحساسه..فنماذج ومعلومات كثيرة عنه خزّنّاها بالذاكرة.

- إذن فما إحساسي الآن؟

سأل أسامة مبتسمًا.

- أنت تشعر بالملل..

Cover by #ahz_art





دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية - القاهرة - مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01111947957